تيودور نولدكه (1836 م - 1930 م) وحوار الثّقافات من خلال كتابه "تاريخ القرآن"

د. فريد قطاط (*)

الحوار باعتباره قضيّة مركزيّة في الاستراتيجيّة العلميّة لجامعة الزّيتونة :

يتجاذب الإنسانيّة منذ عقدين من الزّمن اتّجاهان متباينان أحدهما يلوّح بحتميّة صراع الحضارات والثّقافات، والثّاني يراهن على إمكانيّة إقرار السّلام العالميّ بواسطة الحوار بين الدّيانات، والحضارات والثقافات.

وإذا كان للتّيار الأوّل بعض المنظّرين البارزين من أمثال ساموويل هنتنجتن صاحب كتاب "صدام الحضارات" (1) وبرنارد لويس مؤلّف كتاب "صراع الثقافات بين المسيحيّين والمسلمين واليهود في العصر

(*) أستاذ أصول الدّين بالمعهد الأعلى لأصول الدّين.

(1) HINTINGTON Samuel P. : The clash of civilisation, in foreign affairs, Vol.72, n° 3, summer 1993.

الوسيط" [2]. فإنّ الغالبيّة العظمى من رجال الفكر وقادة السياسة في العالم انضمّت إلى الجبهة التي تنادي بالتعايش بين الأديان، والحوار بين الحضارات والثقافات، حتّى صار الإعلان عن انعقاد النّدوات والملتقيات الدّوليّة والإقليميّة والمحلّية أمرا لا تكاد تخلو منه عاصمة من العواصم شرقا وغربا، وتنافست المؤسسات الأكاديميّة والجامعات العالميّة، والمحافل السّياسيّة من حكومات وبرلمانات وأحزاب، في احتضان مثل هذه النّدوات، لأنّ الحوار أضحى في اعتقاد هؤلاء جميعا أفضل سبيل إلى تحقيق السّلم العالميّ حاضرا ومستقبلا.

ولمّا كان الفضل للمتقدّم في النهوض بأعباء هذه المسؤولية، صار من الواجب أن ننوّه بالجهود الطليعيّة والمواقف المبدئيّة والرّياديّة التي اضطلعت بها جامعة الزيتونة في هذا الإطار، وذلك انطلاقا من انفتاحها على مواكبة التّجديد والتحديث إلى جانب تجذّرها في مقوّمات الأصالة والهويّة، ممّا أتاح لها أن تكون نموذجا ناجحا في النّهوض المتميّز بمستوى البرامج التعليميّة ليكون العلم الدّيني ملبّيا للتّوازن بين السّموّ الرّوحي والرّقيّ المادّي في انسجام كامل بين خطاب القداسة ومستجدّات عصر الحداثة، دونما افتعال أو انفعال، حتّى غدا هذا الأمر من الخصوصيّات التي تميّزت بها جامعة الزيتونة على مستوى تضافر جهود جميع المنتسبين إليها من أجل تطوير البرامج والمناهج، بصفة مطّردة ومستمرّة، من قبل أن يقع التّطرّق إلى هذه القضيّة على الصّعيد العالميّ،

(2) Levis, Bernard Cultures in confliet : Christians, Muslims, and Jews in the age of discovery

وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللّغة الفارسية، بعنوان :"برخورد فرهنكها [صراع الثقافات] - ترجمة بهمن دخت أويسي - نشر ووهشي فرزان - تهران - 1830 هجري شمسي - 2001 ميلادي. وتجدر الإشارة إلى أنّ نظريّة الصّراع من ابتكار برنارد لويس، وقد تلقّاها عنه ساموويل هنتنجتن حتّى اقترنت النّظريّة باسمه.

فكان لها السّبق والتّقدّم، بحكمة واعتدال، جعل منها مرجعا تنهل منه المؤسّسات العلميّة، ومنبعا لا تستغني عن الاستئناس بتجاربه الهادئة والرّصينة الجامعات الإسلاميّة.

ويتنزّل الاهتمام المبكّر بتنظيم النّدوات العلميّة والملتقيات الدّوليّة التي احتضنتها جامعة الزيتونة في نطاق معالجة قضايا الحوار بين الأديان، والحضارات والثقافات، ضمن الحركيّة الّتي دأبت عليها منذ عقدين من الزّمن، إذ لم يمض عام من الأعوام دون أن يكون لأحد مؤسّسات الجامعة نشاط في هذا المضمار. استأثر المعهد الأعلى لأصول الدّين بالنّصيب الأوفر منه، فانتظمت في رحابه ندوة علميّة دوليّة حول "الأديان والمذاهب وثقافة السّلم" في أفريل 2001 م، واحتضن فضاؤه ملتقى دوليّا حول "مستقبل الحوار بين الأديان" في جانفي 2003، واستضاف فعاليّات ندوة "الاستشراق وحوار الثّقافات" في فيفري 2005، شارك فيها أكاديميّون ومفكّرون من تونس والمغرب واليمن، وإسبانيا وسويسرا وفرنسا وإيطاليا.

وليس غريبا أن تسعى جميع المؤسسات العلميّة في العالم إلى إيجاد علاقة بين ما تنظّمه من ملتقيات أو تنشره من منشورات وبين حوار الحضارات والثّقافات.

وإذا كانت الأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، فإنّه يمكن الإشارة إلى بعض منها، تأكيدا لسلامة توجّهنا، وترسيخا لكون ما يصدر عن جامعة الزّيتونة، والمعهد الأعلى لأصول الدّين تحديدا، إنّما يندرج ضمن استراتيجية علميّة تتقدّم بوعي عميق والتزام مسؤول نحو المساهمة في إحلال العدل والاستقرارعبر التّعارف والحوار بين الممثّلين الحقيقيّين والمنتسبين الواقعيّين إلى الثّقافات والحضارات المختلفة.

فقد ارتأى محمود حمدي زقزوق اعتبار نشر وزارة الأوقاف المصرية لكتاب "الاستشراق الألماني - تاريخه، واقعه - توجّهاته"، فقال : " ... وهذا الكتاب يمكن أن يندرج بشكل ما في دائرة الحوار بين الحضارات والثّقافات... ونحن نعتقد أن الحوار قد أصبح ضرورة من ضرورات العصر، فهو الطّريق السّليم للتوصّل إلى الفهم المشترك، والاحترام المتبادل، والقضاء على الأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة. وهذا هو الّذي دفعنا لأن يقوم المجلس الأعلى للشّؤون الإسلاميّة بنشر هذا الكتاب إسهاما في دعم قضيّة الحوار من خلال التّعرّف الدّقيق على ما لدى الآخرين من توجّهات، والتّفهّم لوجهات نظرهم تمهيدا لتعريفهم أيضا بوجهات نظرنا وما لدينا من توجّهات" [3].

وفي نفس هذا الاتّجاه، ذكر حسن مدن في المقدّمة الّتي مهّد بها لكتاب ناديا أنجيلسكو" [4] "الاستشراق والحوار الثّقافي" أنّ "الفكرة الأساسيّة في ثنايا الكتاب تتمحور حول معرفة الاستشراق كوسيلة لإغناء الحوار بين الشرق والغرب، والدّعوة إلى تفاعل الثقافات في إضفاء الصّفة الإنسانية على الحياة التي يريدها سدنة النظام الثّقافي الدّولي الجديد أن تكون أحادية، استهلاكية، خالية من الرّوح" [5]. ومن

(3) هويدي، أحمد محمّد - الاستشراق الألماني - تاريخه وواقعه وتوجّهاته المستقبلية - دار التعاون للطبع والنشر - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - مصر - 1420 هـ - 2000 م، ص4.

وتجدر الاشارة إلى أنّ محمود حمدي زقزوق كتب مقدمة هذا الكتاب بصفته وزيرا للأوقاف المصري.

(4) ناديا أنجيلسكو، مستشرقة رومانية، ولدت سنة 1941 م، تدرّس اللّغة العربية بكلّية الآداب في جامعة بوخاريست، لها مشاركات عديدة في الملتقيات الدّولية حول الاستشراق والدّراسات الإسلامية، زارت العديد من البلدان العربية كتونس، مصر، السعودية، لبنان، المغرب، قطر، الكويت، الإمارات العربيّة، وغيرها.

(5) أنجليسكو، ناديا - الاستشراق والحوار الثّقافي - منشورات دائرة الثقافة والإعلام - الشارقة - 1999، ص7.

المفيد أن نشير في نفس هذا السّياق إلى أنّ تونس أسّست لمرحلة جديدة تنضاف إلى سجلّها الرّياديّ والإيجابيّ في هذا المجال، وذلك بدعوتها إلى انعقاد النّدوة الدّولية حول "الحضارات والثقافات الإنسانية: من الحوار إلى التحالف" في جانفي/فيفري 2006م، بالتنسيق بين المنظّمة الإسلامية للتربية والعلوم والثّقافة - إيسيسكو - ووزارة الثقافة والمحافظة على التّراث بالجمهورية التّونسيّة.

هل يمكن أن تكون شخصية نولدكه منطلقا نموذجيّا لحوار الثّقافات ؟ :

تبدو الإجابة عن هذا السّؤال مصدرا لتكريس اختلاف الآراء وتباين وجهات النّظر، رغم أنّ طرحه يهدف في الواقع إلى محاولة تجاوز الاختلاف والتّباين، بعيدا عن الإثارة والاستفزاز، وهاتان الصفتان بالذّات من أبرز ما يمكن أن ينعت بهما المستشرق الألماني تيودور نولدكه Theo-dor Nöldeke وكتابه "تاريخ القرآن". فالمؤلف والمؤلّف إذن ظاهرة مزدوجة ومعقّدة، وبهما أصبحت تؤرّخ الدّراسات القرآنية، باعتبار تقسيمها إلى ثلاث مراحل هي :النتائج التي توصّل إليها نولدكه في كتابه"تاريخ القرآن" قياسا بما قبله وما بعده من الدّراسات.

ورغم أنّ هذا الكتاب الّذي صدر لأوّل مرّة سنة 1860 م باللّغة الألمانية لم يترجم ترجمة كاملة إلى أيّ من اللغات العالمية الكبرى كالأنجليزية أو الفرنسية أو العربية، فإنّه لم يفقد أهمّيته ومرجعيته باعتباره مرحلة فاصلة وفارقة، بها يقع التمييز بين ما قبلها وما بعدها، واهتمّ العلماء المسلمون والباحثون العرب بهذا الكتاب من منطلق معالجته لأخطر القضايا المتعلّقة بالقرآن الكريم، فكانوا يناقشون أو يحلّلون، ويمدحون أو يستهجنون، بناء على قراءات ناقصة لبعض

الفصول أو الفقرات التي تظهر بين حين وآخر في المصادر والموسوعات الانجليزية والفرنسيّة الخاصّة بالدّراسات القرآنية، وتغلب عليها نزعة الإطراء والتمجيد.

وبمجرّد أن أصدرت مؤسسة "كونراد _ أدناور" Konrad-Adnauer الألمانية في سنة 2004 م التّرجمة العربيّة الكاملة الأولى من بيروت (6)، وبقلم جورج تامر في 841 صفحة حتّى سارع كلّ فريق إلى التعبير عن موقفه من هذا الكتاب بأساليب ومناهج فيها إطراء كثير أو انفعال شديد، وتراشق بالاتّهامات شاركت فيه شخصيات علميّة تنتمي إلى مختلف الشّرائح والاتجاهات عبر تحرير المقالات على صفحات المجلاّت والصّحف والمواقع على شبكة الأنترنات.

وإنّ أشدّ ما يلفت الانتباه هو إصرار "برنارد فوغل" Bernard Vogel رئيس مؤسسة "كونراد - أديناور" على تصدير التّرجمة العربيّة للكتاب بما ينزّله حسب رأيه في سياق دعم الاستشراق لآفاق الحوار والوفاق بين الحضارات والثّقافات، فكانت الفقرة الأولى لهذا التصدير مدخلا مباشرا لتكريس هذا الرّأي بقوله : "يحتلّ دعم الحوار بين الثقافات، وبالأخصّ بين الأديان، حيّزا مرموقا بين اهتمامات مؤسسة كونراد - أديناور. دعم هذا الحوار هو منذ فترة طويلة الهمّ الأساسيّ

(6) ذكرت صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ الخميس 27 شوال 1425 هـ / 9 ديسمبر 2004 م، العدد 9508 أنّه تمّ توزيع نسخ من كتاب "تاريخ القرآن" مجانا على زوّار معرض الكتاب العربيّ والدّولي في بيروت، واضافت قائلة :"وما هو جدير بالملاحظة أنّ المبادرة الألمانية قد لا تسعف القرّاء العرب بالقدر الكافي لأنّ دار النّشر الّتي أصدرت الكتاب هي "هيلدسهايم" في زوريخ ونيويورك، مع أنّ الطباعة تمّت في بيروت، وهو ما يجعل توافره في المكتبات رهنا بالقدرة على توزيعه". وفي هذا دليل على انضمام مؤسّسات أمريكيّة وسوسريّة إلى تمويل طباعة الكتاب ليقع توزيعه مجانا.

الّذي ينصبّ عليه جهدنا في مشاريع التّعاون الدّوليّ التي نقوم بها، وهي تدور حول قيم الفكر وأسسه وأهدافه، وتتناول كذلك الآراء المختلفة حول تقييم المشاكل الرّاهنة وبناء مستقبل مشترك" [7]، ويمضي قائلا : "ما من دين من أديان العالم الكبرى يسعى إلى مجابهة الأديان الأخرى أو يريد "صراعا بين الثقافات". فإنّ العدالة والحرّية واحترام كرامة الإنسان قيم أساسية توجد في كل الأديان الكبرى بصياغة أو بأخرى. وكذلك التسامح والاستعداد للتّوجّه نحو الآخر من أتباع الأديان الأخرى بانفتاح وتجرّد" [8]، إلى أن يقول : "إنّ الأثر الموضوع بين أيدينا مثل بارز من أمثلة التعاون العلميّ الألماني - العربيّ. فقد تداخل لدى نولدكه وأتباعه الالتزام تجاه العلم والارتباط الوثيق بالعالم العربيّ معا، من دون انقطاع، فهم لم يريدوا أن يعلّموا، بقدر ما أرادوا أن يتعلّموا. وقد أدّى انشغاله العلميّ بتعاليم الإسلام الأساسيّة إلى نشوء شكل من أشكال التّفاهم، قائم على التّسامح والاحترام، لا يهدف إلى توحيد قسريّ للآراء، بل بالأحرى لا يدع مجالا للشكّ في وجود الاختلافات.

ونحن نقرن بنشرنا لترجمة هذا الأثر الكبير الرغبة في متابعة التقليد الحسن، تقليد التّبادل العلميّ الألمانيّ - العربيّ، والمساهمة في خلق تفهّم أفضل بين المسلمين والمسيحيّين. كما أنّنا نقرن بذلك أخيرا الرّجاء بأن نكون بهذا قد قدّمنا دعما، ولو يسيرا، للحوارات الكثيرة التي لا بدّ من أنّها ستكون ضروريّة في القرن الحادي والعشرين" [9].

(7) انظر : نولدكه، تيودور - تاريخ القرآن _ نقله إلى العربية وحقّقه جورج تامر - دار نشر جورج المز - هيلدسهايم - زوريخ _ نيويورك - بيروت _ ط - 1 - 2004 م، ص IX.

(8) نفس المرجع، ص IX .

(9) نفس المرجع، ص X - IX.

ويمضي مترجم الكتاب جورج تامر في تأكيد هذه المعاني بقوله : "قامت مؤسّسة كونراد - أدناور (Konrad-Adenauer Stiftung) الألمانية بدعم تعريب هذا الكتاب وإصداره، وذلك في إطار اهتمامها بالحوار مع الإسلام. هذا المشروع، إذا، مشروع حواريّ، القصد منه تحريك سجال علميّ بغية تشجيع البحث في ميدان الدّراسات القرآنية والإسلامية، من خلال تزويدها بمادّة نقديّة غنيّة. ونحن نرجو أن يطلق الكتاب حوارا حول المادّة التي يتضمّنها، وأن يسهم في بلورة قراءة حديثة للتّراث العربيّ الإسلاميّ عموما" [10].

ورغم ما في هذه التّصريحات من نزوع إلى إطلاق التّطمينات بأن ترجمة كتاب "تاريخ القرآن" إلى اللّغة العربية وتوزيعه في أوساط المثقّفين العرب يتنزّل في إطار "مشروع حواريّ" يهدف إلى "المساهمة في خلق تفهّم أفضل بين المسلمين والمسيحيين"، فإن ردود الأفعال العربيّة إزاء هذا الحادث الثقافيّ كانت متباينة ومتناقضة إلى حدود بعيدة، إذ هناك صنف من المفكّرين ممّن اصطفّوا بانتظام خلف المدرسة الاستشراقية ينهلون من منابعها ويردّدون نتائجها، ويدافعون عنها دون قيد أو شرط. فهؤلاء وجدوا أنفسهم في وضع شديد التّعقيد، لأن طبع الكتاب ساهم في الكشف عن مصادر نظرياتهم الّتي كانوا يطلقونها حول القرآن دون نسبتها إلى مظانّها، وهذا ما عبّر عنه الباحث الليبيّ الصّدّيق بشير نصر بقوله : "إن صدوره [11] بالعربيّة سوف يفوّت الفرصة على بعض من ينتحل أفكار الآخرين فينسبها إلى نفسه حتّى يشعر القارئين له بأنّه على اطّلاع واسع على لغات قديمة لا يمكن فهم القرآن بمعزل عنها. وأحسب

(10) نفس المرجع، ص XXIII.
(11) أي كتاب "تاريخ القرآن".

أنّ كتابات حديثة في العربية عن القرآن وتاريخه سوف يُكتَشَفُ أنّها أفكار نولدكه ونتائج دراساته، ولكنّها في ثوب عربيّ" [12].

وبما أنّ كتاب "تاريخ القرآن" قد ضمّ في تقدير بعض دوائر القرار والنّفوذ السّياسيّ والدّينيّ جملة من المواقف والنّتائج التي تمسّ بقداسة النّبوّة والقرآن وأمّهات المؤمنين، فإن ردود الأفعال حياله بلغت حدّا انتهى إلى إصدار الأوامر بمنع الكتاب عن التّداول في كثير من الدّول العربيّة درءا لخطر الفتنة الطّائفيّة. فقد أوردت صحيفة النّهار اللبنانية خبرا يفيد أنّ "المديريّة العامّة للأمن العام اللّبنانيّ قرّرت بناء على طلب تلقّته من إحدى المرجعيّات الدّينيّة منع تداول كتاب تاريخ القرآن للمستشرق الألماني تيودور نولدكه، الّذي صدرت ترجمته في نهاية العام 2004، فضلا عن سحبه من المكتبات واتّخاذ الإجراءات القانونيّة المناسبة باعتباره يثير النّعرات الطّائفية" [13]. كما وردت الأنباء أنّ الكتاب منع من التّداول والتّوزيع في الشّام والأردن، إذ ذكر جمال أبو حسّان "أنّ دائرة المطبوعات والنّشر في الأردن منعت كتاب "تاريخ القرآن" من التّداول لما فيه من أغاليط وسمحت للهيئات الرّسميّة والجامعات باقتناء نسخه، لكنّني سمعت أنّه يسرّب على شاكلة إهداءات إلى بعض المعنيّين،

(12) الصّديق بشير نصر - مقال : لأوّل مرّة في اللّغة العربية : تاريخ القرآن - مجلّة التّواصل - تصدر عن جمعية الدّعوة الإسلامية العالميّة بليبيا العدد السّادس، جوان 2005، ص 215. وصاحب المقال أستاذ جامعي وباحث في الإسلاميات، وهو الآن بصدد ترجمة كتاب "تاريخ القرآن" لنولدكه إلى اللّغة العربية ترجمة ثانية.

(13) صحيفة النّهار البيروتية - الأحد 25 أيلول والإثنين 3 تشرين الأوّل 25 سبتمبر - 3 أكتوبر 2005.

وبالطّبع ليس بتـاريخ القـرآن، ولكن بأشـيـاء أخـرى، واللّه تعـالى أعلم بحقيقة الحال" [14].

ورأت مجلّة "تحوّلات" أنّه بالإمكان إجراء حوار حول الكتاب دون اللّجوء إلى أسلوب المنع والإقصاء، فذكرت أنّه "في كلّ الأحوال، يعتقد الكثيرون أنّنا بحاجة إلى اعتماد المنهج العقلي في صياغة مواقفنا النّهائية إزاء مختلف الدّراسات الّتي تتناول إرثنا الرّوحيّ والتّعامل معها من باب البحث والنقد والتّمحيص، خيرا من الحجب والمنع والتكفير، خصوصا أنّنا نتعامل مع مادّة فكريّة بحتة يمكن محاورتها ومحاججتها والرّدّ عليها، وإلاّ نكون مارسنا من حيث لا ندري نفس الأسلوب الّذي تتّبعه تلك الجماعات التي اشتهرت بأنّها متطرّفة أو سلفيّة" [15].

فنحن إذن أمام ظاهرة مثيرة للجدل بشكل أثّر على السّاحة الثقافية والعلمية على مستويات يمكن تقسيمها إلى ثلاثة اتّجاهات :

* الاتّجاه الأوّل : يدعو إلى اعتبار نولدكه وكتابه "تاريخ القرآن" جسرا مناسبا لإرساء حوار بنّاء بين الحضارات والثّقافات.

* الاتّجاه الثّاني : يرى في المؤلّف وكتابه تحدّيا للثّوابت الدّينيّة والاجتماعيّة بما من شأنه التأثير سلبيّا على وحدة النّسيج الاجتماعي في البلاد العربيّة والإسلامية، فقام بردّ الفعل المباشر عبر إصدار التشريعات والقرارات لمنع الكتاب من التّوزيع والتّداول.

* الاتّجاه الثّالث : يدعو إلى التّعامل مع الكتاب من منطلق البحث والتمحيص والنّقد، واجتناب اللّجوء إلى أساليب المنع والتكفير.

(14) جمال محمود أحمد أبو حسّان - جامعة الزّرقاء الأهلية - كلّية الشريعة - نقلا عن dr.jamel hassan@hotmail.com.

(15) مجلّة تحوّلات - العدد 4 - الثلاثاء 18 تشرين الأوّل (أكتوبر) 2005. والمقال دون توقيع.

ونحن في هذه الدّراسة، سنراهن فعلا على منطق الحوار، الرّصين والهادئ، دون أن تتحكّم فينا أيّ من آليّات الاتّجاهات السّالفة الذّكر، مع أنّنا سنلتقي مع الاتّجاه الثّالث في ضرورة الأخذ بأسلوب الحوار واتّباع مناهج النقد والتّحليل، رغم أنّ هذا الاتّجاه على علاقة وطيدة بالاتّجاه الأوّل في نزوعه إلى محاكاة نفس الأهداف والانتصار لها، وإن لم يعلن عن ذلك صراحة، لذا وجب التّنبيه إلى أنّ هذا الاشتراك في الموقف من جانبنا لن يكون إلا من خلال ما سبق أن أرسينا دعائمه في بداية هذه المداخلة من أنّ الحوار في اعتقادنا استراتيجية علميّة وطريقة منهجيّة نسعى إلى تكريسها ونشرها دعما لعقلية التسامح والانفتاح والتّحاور مع الآخر باعتبارها أفضل السّبل وأنجح الطّرق للتّوصّل إلى النّتائج البنّاءة في إطار الاحترام المتبادل واجتناب التّطاول على مقدّسات الآخرين مهما كانت المبرّرات، وربّما كان محمّد كرد علي على صواب في ما ذهب إليه من القول : "وأحبّ مع هذا ألاّ يفوتنا أنّه ليس من المعقول أن نكلّف من لم يتأدّبوا بأدبنا، ولم تعمل فيهم أحاسيسنا، ولا دانوا ديننا، أن يعتقدوا ما نعتقد، ويكتبوا فينا ما نحبّ، فلكلّ جنس تفكيره، ولكلّ جيل مدنيّته، ولكلّ إنسان أهواؤه وأغراضه" (16).

ومن هذا المنطلق بالذّات سنتناول هذه القضيّة المستفزّة حقّا بعيدا عن عقلية "الذّهن المنفعل - الّذي - يصعب الوثوق به أو الاطمئنان إليه، بينما يسهل تفجيره سياسيّا أو جغرافيّا من قبل صانع القرار السّياسيّ المضادّ" (17) وإنّما بانتهاج الرّوح العلميّة والنّزعة الموضوعيّة، فلا نجامل

(16) كرد علي، محمد - أغراض المستشرقين - مجلّة الرّسالة - العدد 114 - السنة الثالثة، 1935 م، ص 14 - نقلا عن : الموسوي، محسن جاسم - الاستشراق في الفكر العربي - الهيئة العامّة للكتاب - مصر - 2005 م، ص 123.

(17) الموسوي - الاستشراق في الفكر العربي، ص 39.

ولا نتحامل، لأنه ليس لنا من هدف سوى محاولة إبراز الحقائق، وذلك من خلال تقديم تعريف مفصّل لتيودور نولدكه حتّى نقف على خصائصه العلمية وخصاله الإنسانية، ثم نحاول التّطرّق إلى استعراض أهمّ ما ورد في الكتاب، في ضوء التّحليل والنّقد، ليكون القارئ في خاتمة المطاف حَكَمًا فصلا على ما إذا كان نولدكه رجلا موضوعيّا وجدّيّا، أم أنّه سقط في أخطاء ومبالغات لم يقع التّفطّن إليها من قبل بسبب تأثير الدّعاية الإيجابيّة الّتي غالبا ما رافقت الحديث عن هذا الكتاب ومؤلّفه في الأوساط العلمية والأكاديمية في العالم، ونتج عن ذلك أن قسما من الفكر العربيّ والإسلاميّ صار "يتشكّل في بعض مصادره من مرجعيّات مختلفة، فرنسية وأنجلوسكسونيّة وألمانيّة، تضيف إلى ما لديه، أو تتفاوت معه، تثيره أو تتطابق معه، تتوالد مع الرّغبة أو ضدّها. إلا أنّ هذه المرجعيّات ليست وهما، ولم تكن كذلك في طبيعة ما آلت إليه أيضا" [18]، ويعني هذا أنّه إذا تجنّبنا في دراستنا هذه إطلاق أحكام الشجب والإدانة، فإنّه سوف لن نجعل سبيلا إلى تسرّب الإطراء والتّمجيد، حتّى تكون النتائج معبّرة بنفسها عن واقع الحال في موضوعية تنأى عن الإثارة وردود الأفعال.

ولقد حدّد رومان هرتسوغ [19] Roman Herzog العديد من القواعد والمبادئ الّتي تساعد على تحقيق أهداف التّواصل السّلميّ بين

(18) نفس المرجع، ص17 .

(19) رومان هرتسوغ : من رجال السياسة، ولد سنة 1984، وقع انتخابه رئيسا لألمانيا سنة 1994، وكان قبل ذلك أستاذا للحقوق ورئيسا للمحكمة الدّستورية في ألمانيا الفيدرالية، له شغف بالبحث العلمي والتحقيق، وخاصّة في مجال القانون الدّستوري. ألّف كتابا بعنوان : "الحكومات القديمة" صدر سنة 1998، وتناول فيه البحث عن طبيعة الحكومات القديمة من حيث الأسس والأشكال... وله كتاب عن حوار الثقافات بعنوان :

Preventing the clash of civilisations : a peace strategy for the twenty century .

وترجم إلى اللغة الفارسية بعنوان : آشتى تمدّنها راهبردى براى صلح جهان در قرن بيست ويكم [تصالح الحضارات : استراتيجية السّلام العالمي في القرن الواحد والعشرين].

الحضارات والثقافات إذا ما وقع الالتزام بها من قبل جميع الأطراف، ونظرا إلى أنّ رومان هرتسوغ يصدر في مواقفه عن الهويّة الغربيّة، والبيئة الألمانيّة تحديدا، وهي نفس الهويّة الثقافيّة التي ينتمي إليها تيودور نولدكه والجهة الّتي وقفت وراء ترجمة كتابه "تاريخ القرآن" إلى العربيّة، فإنّ ما سجّله من هذه المبادئ يمكن أن يحظى بقبول شتّى الجهات المتحاورة لتكون قاعدة يقاس بها مدى الالتزام بأخلاق الحوار الّتي حدّدها في الأصول التّالية :

1 - ثمّة من النّاس من يرفض الحوار، يرفضه حيث أنّه لا موقف له. وكلّ حوار يفترض الحلم والتسامح دون أن يكون لأحد شعور بالاستعلاء وبأنّه محتكر للمعرفة. نحن في حاجة إلى إدراك ما هو واحد في الحضارتين وما هو مختلف.

2 - ليس يمكن تحديد هدف ثابت لحوار الثقافات. لكنّ الواضح أنّ من يدخل في حوار يقبل بشرط أساسيّ، وهو ألا يتعرّض أحد للعنف أبدا بسبب اقتناعاته أو معتقداته.

3 - الحوار يتيح فرصا أعظم، ففي أحسن الظّروف قد يؤدّي الحوار إلى تعاون شامل بين الشّعوب على حلّ مسائل المستقبل الكبيرة. وقد يصير السّلام الحقيقي والدّائم ممكنا.

إنّ حوار الثّقافات، لهو في عصر الاتّصالات الشّاملة، الطّريق الوحيد الّذي يمكن سلوكه، ليس لذلك بديل. فمن يخرج عن الرّكب ويطلب العزلة لن يكون له تأثير. ولن يوقف التغيّرات الجارية في العالم، إنّما يُحرَم من المساهمة في توجيهها. وفرصة الحوار سيغتنمها كلّ من يعرف قوّة البراهين ويطمئنّ إلى بعيد تأثيرها [20].

(20) هيرتسوغ، رومان - الحوار الجدّي بين الحضارات أمر سلميّ، لكنّه ليس بالأمر الهيّن أبدا - صدرت ترجمة هذا المقال إلى اللّغة العربيّة بمجلّة فكر وفن الألمانية النّاطقة بالعربية - العدد 70 - السّنة 36 - 1999، ص33... وكان هذا المقال قد صدر في مجلّة فرانكفورتر الغمانية تسايتونغ Frankfurter Algemeine Zeitung بتاريخ 1999/04/30.

ثناء المستشرقين على نولدكه :

يحتل المستشرق الألماني تيودور نولدكه مكانة متميّزة جدّا بين المستشرقين الّذين أثنوا عليه وعلى كتابه "تاريخ القرآن" خاصّة، ويمكن أن نسوق في هذا الصّدد شهادتين إحداهما للمستشرق المجري أجنتس جولدتسيهر الّذي وصف نولدكه بالزّعيم الكبير. فقال في معرض الثّناء عليه : "وقد عالج هذه الظاهرة [21] علاجا وافيا، وبيّن علاقتها بفحص القرآن، زعيمنا الكبير تيودور نولدكه في كتابه الأصيل البكر: تاريخ القرآن الّذي نال جائزة أكاديميّة النقوش الأثرية بباريس" [22].

وأمّا المستشرق آرثر جفري Arthur Jeffery، فقد تعرّض إلى الثّناء على نولدكه في المقدّمة التي كتبها تمهيدا لكتاب "المصاحف" للحافظ أبي بكر عبد اللّه بن أبي داود السّجستاني، بقوله : "بدأ نولدكه الألماني باستعمال طريقة البحث هذه في نصّ القرآن الشّريف في كتابه المشهود الجليل المسمّى تاريخ القرآن، نشر هذا الكتاب سنة 1860 م. وهو الآن أساس كلّ بحث في علوم القرآن في أوروبّا" [23].

وتابع أرثر جفري كلامه ليتّهم علماء المسلمين بالتجنّي على نولدكه، بقوله : "ولمّا ظهرت الطّبعة الأولى من كتاب نولدكه تجنّى عليه بعض أصحاب النّقل في الشّرق واتّهموه بالطّعن بالدّين" [24]. لكنّ الحقيقة في نظرنا مخالفة لما ذهب إليه جفري بدليل أنّه لم يذكر مثالا واحدا للبرهنة على اتّهامه، كما أنّنا حاولنا بدورنا البحث عن بعض علماء

(21) أي ظاهرة اختلاف القراءات القرآنية.

(22) جولدتسيهر اجنتس- مذاهب التفسير الإسلامي - دار اقرأ ط.3 _ بيروت - 1405 هـ - 1985م، ص 7.

(23) ابن أبي داود، عبد اللّه - كتاب المصاحف - تحقيق آرثر جفري - المطبعة الرّحمانية - ط1 - مصر - 1355 هـ/1936م، ص4.

(24) نفس المصدر، ص 4.

المسلمين ممّن اتّخذوا موقفا سلبيّا أو عدائيّا من نولدكه وكتابه "تاريخ القرآن" فلم نعثر على أثر يمكن أن يؤكّد مزاعم آرثر جفري، وما نرجّحه بعد الاستقصاء الّذي قمنا به هو أنّ علماء المسلمين لم يتعرّضوا إلى نولدكه وكتابه لأنّهم لم يطّلعوا عليه بسبب اللّغة الّتي كانت حائلا بينهم وبين الرّجوع إلى الكتاب مباشرة، ولهذا لم نجد في مواقفهم مدحا أو قدحا، ولا تحليلا ونقدا مفصّلا للقضايا التي وردت في الكتاب، وذلك باستثناء بعض الإشارات العابرة التي لا تدلّ على "الطعن والتّجنّي" الّذي ذهب آرثر جفري إلى إلصاقها بهم، لا سيّما أنّ الكتاب مصنّف باللّغة الألمانية، ولم ير النّور في اللّغة العربية إلا في السّنوات القليلة الماضية.

وإنّنا خلافا لكلّ ما سبق ذكره من قبل آرثر جفري، نستطيع أن نسوق بعض النّقول الّتي تتّجه نحو الثّناء على كتاب "تاريخ القرآن" من لدن بعض العلماء والمفكّرين الّذين اطّلعوا عليه بصفة جزئية أو قرؤوا بعض التعليقات الإيجابيّة حوله، ومن ذلك ما أكّده نجيب العقيقي في معرض حديثه عن نولدكه أنّه "اشتهر بمتانة الخلق وسعة المعرفة ووضاحة التّفكير والتزامه في مصنّفاته أسلوبا علميّا حديثا صارما لا يقبل فيه إلا ما يقوم على المنطق" [25]. ونحن إذ نسجّل هذه الشهادة في حقّ نولدكه، فليس ذلك من باب الرغبة في مناقشة ما ورد فيها من مدح وثناء يكاد يلتقي كلّيا مع عواطف الغربيين واتّجاهات المستشرقين في تعدادهم لفضائل نولدكه، العلمية منها والإنسانية، وإنّما مرادنا هو أنّ من تعرّض إلى الحديث عن نولدكه، وهم قلّة قليلة - "لأنّهم لم يكونوا قد اطّلعوا بعد على كتاب "تاريخ القرآن" كانوا ممّن دأبوا على الإنصاف،

(25) العقيقي، نجيب - المستشرقون - دار المعارف - ط 4 - مصر 1980 - ج 2 ، ص 380.

والاتصاف بأدب جمّ، ومن الواجب في هذه المرحلة أن تخضع جميع المواقف لإعادة النّظر والتقويم، وذلك بعد أن اتّضحت الأمور وأصبحت ترجمة جميع أجزاء كتاب "تاريخ القرآن" - إلى العربية متوفّرة بين أيدي الدّارسين والباحثين.

وأمّا أبو عبد الله الزّنجاني، فقد أطرى نولدكه بعبارات ربّما فاقت ما ذهب إليه المستشرقون أنفسهم، إذ تحدّث عن مزاياه وأسلوبه بقوله : "أهمّ ما ألّفه الإفرنج في تاريخ القرآن الّذي ألّفه الأستاذ نولدكه باللّغة الألمانية... فيه أبحاث تحليليّة قيّمة، كما أنّ فيه ما يؤاخذ عليه عالم محقّق كنولدكه حيث لم يستوف البحث والفكر فيه حقّه.

بحث في كتابه عن تاريخ القرآن من نواح شتّى بما يشهد بتضلّعه واطّلاعه الواسع، كما بحث عن حقيقة الوحي والنّبوّة، وشخصيّة النبيّ صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلّم، ونزول القرآن وتاريخ نزول السّور، مكّيها ومدنيّها.

فآثرنا إيراد خلاصة بحثه في تاريخ السّور، وإن كان قد أخذ عن نفس المصادر العربية الّتي أخذنا نحن عنها، لما فيه من فائدة.

سلك في كشف تاريخ السّور مسلكا قويما يهدي إلى الحقّ أحيانا..." [26].

وإذا كنّا نتّفق مع أبي عبد الله الزّنجاني في أسلوبه الرّصين عند حديثه عن نولدكه، فإنّه يعسر علينا الاتّفاق مع ميشال جحا في ما ذكره من خصال علمية ومناقب أخلاقية لنولدكه، فهي تنمّ عن انحياز

(26) الزنجاني، أبو عبد الله - تاريخ القرآن _ تحقيق طه عبد الرّؤوف سعد - مؤسّسة الحلبي وشركاؤه للنشر - مصر - دون تاريخ، ص 70.

وذاتيّة فيهما مجافاة للموضوعية رغم اتّخاذ هذه الصّفة _ أي الموضوعية والتّجرّد - ستارا لتمرير خطابه، وهذا ما يدلّ عليه قوله : "... لقد رفع نولدكه لواء الاستشراق الألماني فترة تزيد على نصف قرن، هذا، وتبقى كلمة أخيرة في إنصاف هذا العالم الجليل، هي أنّه حاول في كلّ ما كتب أن يكون مثال العالم العقلانيّ، فلم يتجنّ في أبحاثه على الإسلام، ولم يحاول أن يدّعي معرفة أشياء لم يكن يعرفها، ولهذا جاءت آراؤه واضحة جليّة، وخاضعة لصفة التّجرّد، بعيدة عن الهوى والتضليل" [27].

إنّنا ونحن نقرأ ما ورد على لسان ميشال جحا نشعر بأن كاتب هذه السّطور لا يختلف في شيء عن أحد المستشرقين الذين يحاولون الترويج لنولدكه وكتابه "تاريخ القرآن"، فهو يبدو أحد تلاميذهم فعلا، أو منتميا إلى مؤسسة الاستشراق بعقله وفكره وقلمه، وإن عبّر عن مواقفه بلغة عربيّة فصيحة، ومع ذلك كلّه، فإنّ صفات "العالم الجليل" و"العالم العقلاني" و"عدم التجنّي على الإسلام" و"الآراء الواضحة الجليّة" و"البعد عن الهوى والتضليل" قيم سامية، تلقى قبولا وانتشارا لدى جميع أهل الفكر والعقل، مهما تباينت آراؤهم واتّجاهاتهم، ومن الجدير إذن ألاّ نغفل عنها طيلة هذا البحث، لنحتكم إليها في خصوص تقويم النزعة الحقيقيّة التي انتهجها نولدكه في كتابه "تاريخ القرآن" لتكون بعد الدّراسة والتّثبّت، شاهدة له أو عليه، دون تعصّب أو انحياز، بلا دليل أو برهان.

لمحة عن ظروف تأليف كتاب "تاريخ القرآن" :

تحدّثت عديد المراجع عن ظروف تأليف كتاب "تاريخ القرآن"، وهي أطوار من المؤكّد الاطّلاع عليها لنتمكّن من تكوين تصوّر واضح عن

(27) جحا، ميشال - الدّراسات العربية الإسلامية في أوروبا - معهد الإنماء العربيّ - ط 1 - بيروت - 1982م، ص 199.

الكتاب الذي أحدث ضجّة قويّة، وصار مرجعا أساسيا للبحوث القرآنية في أوروبا حسبما صرّح به كثير من الدّارسين الغربيّين، فقد ذكر عبد الرّحمن بدوي أنّ نولدكه "حصل على الدّكتوراه الأولى في سنة 1856م برسالة عن "تاريخ القرآن"، وهو الموضوع الذي سيخصّه نولدكه بدراسة عميقة فيما بعد عامين، أعني في سنة 1858م، حين أعلنت أكاديميّة باريس عن جائزة لبحث يكتب في هذا الموضوع، فتقدّم له نولدكه، وتقاسم هو واشرنجر Sprenger [28] وميكيله أماري Amari [29] الظفر بالجائزة التي ضوعفت حتّى نال كلّ من الثلاثة مبلغ (3/1) - أي 1333 فرنك فرنسي -. وبعد ذلك بعامين آخرين - 1860 م - نشر نولدكه ترجمة ألمانية (وكانت رسالته باللاتينية) منقّحة لهذه الدّراسة تحت عنوان : "تاريخ القرآن" Geschechte des Qorans وهذه الطبعة توسّع فيها جدّا فيما بعد بالتعاون مع تلميذه اشفالي Schwally. وبعد أن حصل نولدكه على الدّكتوراه الأولى وهو في سنّ العشرين، بدأ حياة التّنقّل خارج ألمانيا" [30].

أهم القضايا التي عالجها نولدكه في كتابه "تاريخ القرآن" :

سأحاول استعراض أهم المسائل التي عالجها نولدكه في كتاب "تاريخ القرآن" استعراضا سريعا، ثم أنتقل إلى محاولة تحليل أشدّ هذه القضايا حساسيّة، بقدر ما تسمح به المساحة المخصّصة لهذه الدّراسة.

(28) ألويس اشبرنجر Sprenger Aloys (1813 - 1893 م)، مستشرق نمساوي الأصل، ثم تجنّس بالجنسية الأنجليزية، من أشهر كتبه "حياة محمّد وتعاليمه".

(29) ميكيله أماري MicheleAmari (1806 - 1889م)، مستشرق ورجل سياسة إيطاليّ.

(30) بدوي، عبد الرّحمن - موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين - بيروت - 1993م، ص 595.

فلقد تحدّث نولدكه في الجزء الأوّل من كتاب "تاريخ القرآن" عن نبوّة محمّد والوحي مركّزا على ثلاثة أبعاد، هي : "محمد نبيّا" و"مصادر تعليمه" و"طبيعة الوحي الّذي تلقّاه محمّد". ثم تطرّق إلى قضيّة ترتيب السّور القرآنية ترتيبا زمنيا، فقسّم السّور المكّية إلى ثلاث مراحل هي "سور الفترة الأولى" و"سور الفترة الثانية" و"سور الفترة الثالثة"، ولم يخصّص نولدكه سوى مرحلة واحدة للسور المدنيّة، وبذلك كان تقسيمه لـ "أجزاء قرآننا الحاليّ" كما سمّاه إلى أربع مراحل، وهي الّتي مرّ ذكرها آنفا.

وختم نولدكه الجزء الأوّل من كتابه بمبحث عنوانه "ما لا يتضمّنه القرآن ممّا أوحي إلى محمّد"، وقد تفرّغ في هذا المبحث إلى مناقشة وقوع التحريف فعلا في القرآن، وأورد أمثلة استخرجها من روايات أهل السنّة والشيعة معا، للاستدلال على ما ادّعاه.

وأمّا الجزء الثّاني من كتاب "تاريخ القرآن"، وهو بعنوان "جمع القرآن"، فقد تطرّق فيه نولدكه إلى تتبّع المراحل الّتي مرّ بها القرآن خلال مرحلة جمعه انطلاقا من حياة النبيّ محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم إلى أن استوى في صيغته النهائية بعد عملية الجمع التي أشرف عليها الخليفة عثمان رضي الله عنه، كما تناول نولدكه في هذا الجزء مسائل خطيرة من بينها "السور الخاصة بقرآن أبيّ" ومن بينها حسب زعمه سورتا الخلع والحفد، و"الحروف المبهمة التي تسبق بعض السّور" و"التّحريفات التي يُزعم أنّ أبا بكر وعثمان قاما بها في النص القرآني" و"القرآن المحمّدي في علاقته بالكتب المقدّسة المسيحيّة - اليهودية"، ثم ختم هذا الجزء بملحق عنوانه : "المصادر المحمّدية والأبحاث المسيحيّة".

وكان الجزء الثالث والأخير من كتاب "تاريخ القرآن" بعنوان : "تاريخ نص القرآن"، وهو مقسّم إلى مقدّمة أعقبها ثلاثة فصول الأوّل منها بعنوان : "الرّسم"، وتناول فيه خاصّة "أخطاء النّص العثماني"، وعالج في الفصل الثّاني، وهو بعنوان : "القراءة" كلّ ما له صلة بالقرّاء والقراءات، وكتب القراءات، وخصائص القراءات المشهورة واختلافاتها، ومصادر القراءات الشّاذة، وفي الفصل الثّالث والأخير من هذا الجزء، وهو بعنوان "مخطوطات القرآن"، فتح المؤلّف بابا جديدا من البحث امتدّت آثاره في الدّراسات الاستشراقية المختصّة في علوم القرآن إلى يوم النّاس هذا.

نقد بعض الأخطاء التي وقع فيها نولدكه :

أوّلا - أوائل السّور :

ظنّ نولدكه أن الحروف المقطّعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية من قبيل ألم، ألمر، طه، حم، كهيعص، يس، ن، إلخ... تشير إلى أسماء الصّحابة الّذين كانوا يرمزون إلى أسمائهم بهذه الحروف، وتوهّم أنّ هذه الحروف تشير إلى الصّحابة الّذين كانوا يملكون هذه المصاحف، دون أن يتمكّن من الجزم بالنتيجة الّتي أعلنها، فقد ذكر فريد يريش شفالي أن نولدكه "يتأسّف في الطبعة الأولى من هذا الكتاب لأنّه لم يتمكّن أحد بعد من التوصّل إلى نتائج مضمونة حول معنى هذه الحروف، لافتا إلى أن ذلك، بلا شكّ، سيؤدّي إلى الحصول على نتائج قيّمة بالنسبة لتأليف القرآن. ويقول نولدكه أيضا إن هذه الحروف ومجموعات الحروف علامات مُلكية [31]، وضعها أصحاب النسخ الّتي استخدمت في

(31) يريد الإشارة بعبارة "علامات ملكية" إلى كون الحروف المقطّعة في أوائل السّور القرآنية علامات تشير إلى الحروف الأولى من أسماء مالكيها.

أوّل جمع قام به زيد، وصارت فيما بعد جزءا من شكل القرآن النهائي، بسبب الإهمال، لا غير. ويتابع أنّ ما يؤكّد ذلك هو أنّ مجموعة من السّور المتوالية، التي نشأت في أوقات مختلفة، تبدأ بإشارة "حم"، ما يدفع إلى الظّن بأنّ هذه السّور نسخت عن نسخة أصيلة كانت تحتويها بالترتيب نفسه. وليس مستبعدا أن تكون هذه الحروف هي الحروف الأولى من أسماء مالكي النّسخ. في هذه الحال قد تشير "ألر" إلى الزّبير، و"ألمر" إلى المغيرة، و"طه" إلى طلحة أو طلحة بن عبيد الله، و"حم" و"ن" إلى عبد الرّحمن. أما في "كهيعص" فقد يعني الحرف الأوسط "بن" والحرفان الأخيران "العاص" إلخ. لكن إمكانية اختلاف القراءة تجعل الأمر بمجمله غير أكيد" (32).

إن ما يلفت الانتباه في الفقرة التي نقلناها عن كتاب تاريخ القرآن هو إقرار نولدكه "أنّه لم يتمكّن أحد بعد من التوصّل إلى نتائج مضمونة حول معنى هذه الحروف". ورغم ذلك لم يجد أمامه سوى الانسياق بدوره وراء مغامرة الإدلاء برأيه اعتمادا على الظّنون والاحتمالات. فكثر استعماله لمفردات من قبيل "لعلّ" و "يتابع أنّ ما يؤكّد" و"ما يدفع إلى الظّن". فهذا تأكيد على استنتاجات قائمة على ظنّ لا يفيد علما قطعيا، بل إنّه يمضي على نفس هذا النّهج المتخبّط بمثل قوله "وليس مستبعدا" و"في هذه الحال قد تشير..." إلى أن ينقض ما ادّعاه بقوله :"لكنّ إمكانية اختلاف القراءة تجعل الأمر بمجمله غير أكيد".

(32) نولدكه - تاريخ القرآن، ص 303.

وبينما كان نولدكه يعلن تخلّيه نهائيا عن هذه النّظرية [33] نرى أن هرشفلد [34] يتابع نفس الطّريق التي عبّدها نولدكه، مع إدخال بعض التّعديلات عليها، فقد ورد في كتاب "تاريخ القرآن" أن هـ.هرشفلد مازال "يصرّ على الموقف الّذي سبق لنولدكه أن اتّخذه مع إجراء تعديل عليه، يتطابق بحسبه كلّ حرف مفرد من المختصرات واسما معيّنا. وهو يتوصّل إلى المطابقات التّالية، وهي ظنون وحسب، كما يعترف هو أيضا بذلك :

أل : ال التعريف

م : المغيرة

ص : حفصة

ر(ز) : الزّبير

ك : أبو بكر

هـ : أبو هريرة

ن : عثمان

ط : طلحة

س : سعد (بن أبي وقّاص)

ح : حذيفة

(33) فقد ورد في موسوعة Encyclopédie de l'Islam ما يلي :
Ce point de vue fut largement admis, pendant un certain temps, en Europe, puis repris et défendu en 1901 par Hirschfeld, qui considérait cependant chaque lettre comme l'initianale du nom d'un propriétaire différentì mais à l'époque de la publication de Hirschfeld, Noldeke avait toalement changé d'attitude - Encyclopédie de l'Islam - nouvelle édition - Leiden E.J brill, Paris G.P
Maisonneuve et Larose S.A - 1986 - Tome V, p414.

(34) New Researches into the composition and Exgeses of the Qoran- London - p141 - 143.

ع : عمر أو علي أو ابن عباس أو عائشة.

ق : القاسم بن ربيعة" (35).

إنّ الباحث الجدّي لا يحتاج إلى جهود خارقة ليردّ هذه النّظريّة التي لا تقوم على أيّ أساس موضوعي، وحسبنا اعتراف صاحبها بعقم ما قرّره عبثا، إذ أنّه أقرّ بأنّ ما توصّل إليه "ظنون وحسب". فأين الموضوعية والجدّية، والمناهج العلميّة الّتي وُصفت بها دراسات المستشرقين بدءا بتيودور نولدكه وما تلاه ممّن حذا حذوه وسار على دربه ؟

طه حسين على خطى نولدكه :

لا اختلاف بين العلماء أنّ طه حسين أديب عربيّ كبير، يتميّز بقدر واسع من المعرفة والاطّلاع على العلوم والمعارف والحضارات المختلفة، وقد وظّف كلّ هذه الإمكانات في مسيرته العلميّة تدريسا وتأليفا. وكان يلقي في دروسه الّتي يقدّمها لطّلاب الجامعة المصرية نظريّة نولدكه حول الحروف المقطّعة دون الإشارة إلى صاحبها الأصليّ أو الإحالة إلى المصدر الّذي ينهل منه. فقد ورد في كتاب "نقض مطاعن في القرآن الكريم"، وتحت عنوان "الطعن على القرآن العظيم" في الجامعة المصريّة أنّ "النائب المحترم الدّكتور عبد الحميد سعيد ألقى بيانا في مجلس النّواب في دورة سنة 1932 م عن موقف الدّكتور طه حسين أحد أساتذة كلّية الآداب بالجامعة المصرية تجاه القرآن الكريم، جاء فيه أنّ هذا الأستاذ أملى على التلاميذ في سنة 1927م نقدا للقرآن، وقد ذكر بنصّه، وهو : وَصَلْنا في المحاضرة الماضية إلى موضوع اختلاف الأساليب في القرآن..." (36)

(35) نولدكه - تاريخ القرآن ، ص 308.

(36) عرفة، محمد أحمد - نقض مطاعن في القرآن الكريم - يتضمّن تفنيد ما ألقاه الدّكتور طه حسين على طلبة كلّية الآداب - صحّحه وعلّق عليه السّيد محمد رشيد رضا - مطبعة المنار - ط 1 - مصر - 1351 هـ، ص 4.

إلى أن قال : "هناك موضوع آخر يجب أن أنبّهكم إليه، وهو مسألة هذه الحروف العربيّة غير المفهومة التي تبتدئ بها بعض السّور مثل ألم، ألر، طس، كهيعص، حم، عسق، إلخ... فهذه كلمات ربّما قصد منها التّعمية أو التهويل أو إظهار القرآن في مظهر عميق مخيف، أو هي رموز لنميّز بين المصاحف المختلفة الّتي كانت موضوعة عند العرب. فمثلا (كهيعص) رمزا لمصحف ابن مسعود، (حم عسق) رمزا لمصحف ابن عبّاس، (طس) رمزا لمصحف ابن عمر، وهلمّ جرّا، ثم ألحقها مرور الزّمن بالقرآن، فصارت قرآنا" [37].

إنّ المتأمّل في ما نسبه محمّد أحمد عرفة مؤلّف كتاب "نقض مطاعن في القرآن الكريم" نقلا عن النّائب في البرلمان المصريّ عبد الحميد سعيد إلى طه حسين ليس بإمكانه التردّد في اعتبار هذه النّسبة من المسلّمات بدليل أنّ أيّا منهما لم يكن يعلم مصدر هذه النّظرية، حتّى إنّ محمد أحمد عرفة لم يشر من قريب أو بعيد إلى تيودور نولدكه أو غيره من المستشرقين بذكر أسمائهم، وإنّما كان يكتفي باستعمال عبارات فيها تعميم، كقوله إنّ طه حسين ينقل آراء المستشرقين وأفكار المبشّرين، ولكنّنا نستطيع بدورنا أن نثبت بشكل قطعيّ لا مجال فيه إلى الظّن أو الشّك أنّ طه حسين استقى هذه النّظرية عن تيودور نولدكه، ذلك أن طه حسين من الرّجال الّذين كانت لهم صلات وطيدة وعلاقات واسعة بدوائر الاستشراق في العالم كلّه، إضافة إلى أنّ إينوليتمان Enno Litmann، تلميذ نولدكه وصهره تصدّى لمسؤوليّة عمادة كلّية الآداب بمصر، وفي ذلك يقول مراد كامل "ومن المعروف أن الدّكتور طه حسين والمرحوم الأستاذ علي عبد الرّازق كانا من تلاميذ الأستاذ ليتمان في الجامعة المصرية

(37) نفس المرجع، ص 8.

القديمة، والتي كان ليتمان عميدا لكلّية الآداب بها فترة من الزّمان، كما كان الأمير أحمد فؤاد (الملك فؤاد فيما بعد) مديرا لها... والواقع أنّ ما أحسّ به طه حسين وعبّر عنه بهذه الكلمات، وهو من الرّعيل الأوّل من تلاميذ ليتمان..." (38) وليس من شكّ إذن أنّ طه حسين تلقّى هذه النّظرية بواسطة أستاذه إينوليتمان مباشرة أو أنّه اطّلع عليها من خلال قراءته لكتاب "تاريخ القرآن"، وذلك بحكم إتقانه للّغة اللاّتينية، وهي اللّغة الّتي ألّف بها الكتاب في طبعته الأولى.

وكما كان نولدكه متردّدا، لا يكاد يثبت على رأي في كتابه "تاريخ القرآن"، نلاحظ أنّ طه حسين يسير على نفس هذه الطّريق الملتوية، فيستهلّ كلامه بمثل الأسلوب الّذي توخّاه نولدكه نفسه، إذ نراه يقول : "فهذه كلمات ربّما قصد منها التعمية أو التّهويل أو إظهار القرآن في مظهر عميق مخيف..." (39).

ومن المفارقات الّتي تلوح في هذا الأفق، يمكن أن نلاحظ تمسّك طه حسين بهذه النّظريّة في دروسه الّتي كان يلقيها على طلبة الجامعة المصريّة سنة 1927 م، بينما أعلن صاحبها الأصليّ، تيودور نولدكه، تخلّيه عنها منذ سنة 1901 م.

ثانيا - نفي نولدكه أن تكون سورة الفاتحة من القرآن :

اتّجه نولدكه، إلى الشّك في أن تكون سورة الفاتحة جزءا من القرآن الكريم، وذلك خلافا لما هو مجمع عليه باتّفاق المسلمين، وقد برّر شكّه هذا بجملة من الأسباب لا نرى لها علاقة بسياق حديثه، إذ قال

(38) كامل ، مراد - إينو ليتمان أستاذا وأبا - ضمن كتاب : المستشرقون الألمان لصلاح الدّين المنجّد، ص 180.

(39) عرفة، محمد أحمد - نقض مطاعن في القرآن الكريم، ص 9.

تحت عنوان : "مســألة الأصــالة" : "بما أنّ هذه النّصــوص صلوات شكلا ومضمونا ، لا يمكن نسبتها إلى الوحي إلاّ إذا كانت مسبوقة بالأمر "قل"، الّذي يستعين به القرآن ليضفي الشريعة على الصّلوات - مثل سورة الفلق 113 والنّاس 114 - وكلام محمّد الذاتي بكونها كلام اللّه. غير أن لفظ "قل" يغيب في بداية هاتين السّورتين [40]. لكن هذا بالضّبط هو أحد الأسبــاب الّتي تدعونا إلى الشّك في أن تكون الفاتحة جزءا من الوحي" [41]. ولقد حاول نولدكه بكل جهده أن يعيد سورة الفاتحة إلى مصادر يهودية - مسيحية، ومن ذلك قوله :" لكن الجزء الأكبر من السّورة، وبالتحديد الآيات : 1/2 و 2/3 و 3/4 و 5/6، ينحدر من أصل يهوديّ أو مسيحيّ، كما سنبرهن أدناه" [42]. وحاول أن يقدّم تفسيرا لما ذهب إليه، بمثل قوله : "الحمد للّه توافق تماما عبارة سريانية، وعبارة وردت في العهد الجديد (لوقا 68 : 1، 2 كورنثوس 3 : 1)، وهي عبارة ترد أيضا في العهد القديم... وقد سادت مع اختلاف بسيط في الليتورجيا اليهودية" [43] و"ربّ العالمين تُقارَن مع عبارات وردت في ترجوم الجامعة، والتّكوين بحسب النّص اليهودي، إلخ..." [44] و"ملك يوم الدّين في سفر يهوديّت : 17 : 16، الوصيّة 12 من وصايا الآباء، لدى لاوي، في البداية، ومرارا في العهد الجديد..." [45]. وأمّا "اهدنا الصّراط

(40) يقصد نولدكه بقوله:"هاتين السّورتين"، ما يسمّى بـ"سورة الخلع" و"سورة الحفد"، وهو تارة يميل إلى كونهما جزءا من القرآن، وتارة يتّجه نحو إنكار قرآنيتها،ولا يكاد القارئ لكلام نولدكه نتيجة لكلّ هذا التّردّد والاضطراب إلاّ الحكم على عجز الرّجل وغربته عن روح القرآن، وانعدام صلته بالدّراسات القرآنية الجادّة، رغم كلّ الصّفات الإيجابيّة الّتي سعت الدّوائرالاستشراقيّة، ومن لفّ لفّها من مثقّفي العرب والمسلمين، أن تضفيها عليه.

(41) نولدكه - تاريخ القرآن، ص267.

(42) فس المرجع، ص100.

(43) نفس المرجع، ص100.

(44) نفس المرجع، ص100.

(45) نفس المرجع، ص101.

المستقيم فتطابق بشكل حرفيّ تقريبا المزمور 11 : 12.." [46]. لكنّ نولدكه أضاف مباشرة بعد ادّعائه هذه المطابقة الحرفية ما يفيد أنّه ينسف كلامه جملة وتفصيلا، بقوله : "لكنّ هذا لا يعني أنّ محمّدا قد أخذ هذه الكلمات عن اليهود" [47]. كما أنّه أعلن سابقا في خصوص "ملك يوم الدّين" عجزه عن القطع بتبنّي أي نظرية، ويتجلّى هذا العجز من خلال قوله : "وليس في وسعي تقديم شاهد على استعمال عبارة:"ملك يوم الدّين" رغم أنّ فكرة مملكة المسيا لم تكن منتشرة فقط بين اليهود... بل أيضا بين المسيحيين" [48]. وليس هناك من نتيجة يمكن أن نخلص إليها سوى أن نولدكه يسبح في حوض يهوديّ مسيحيّ، ويتنفّس أنفاسا يهوديّة مسيحيّة، ممّا يجعل القرآن عنده مؤلّفا إمّا من مصادر يهودية أو مصادر مسيحيّة، أو من كليهما معا، دون أن يتمكّن قطعا من الجزم بأسلوب علميّ على ما يدّعيه من نظريات لا يزيدها التّوغّل في محاولة إثباتها إلاّ غموضا واضطرابا.

ولا ينبغي أن تفوتنا الإشارة في هذا الإطار إلى أنّ بعضا من الباحثين الجامعييّن في البلاد العربية قد تأثّروا بنظرية نولدكه حول عدم قرآنية سورة الفاتحة رغم ما يعتريها من وهن وضعف، وأصبحوا يلقّنون طلبتهم أن الفاتحة ليست جزءا من الوحي ولا من القرآن، ليظهروا بمظهر المواكبين للدّراسات الحديثة الّتي تجعلهم في مقدّمة روّاد المعاصرة والاطّلاع على أحدث النّظريات.

(46) نفس المرجع، ص102.

(47) نفس المرجع، ص102.

(48) نفس المرجع، ص102.

ثالثا : جهود نولدكه في سعيه إلى الترتيب التّاريخي لسور القرآن :

بدأ اهتمام المستشرقين بمحاولة ترتيب سور القرآن حسب تاريخ نزولها منذ النصف الثّاني من القرن التّاسع عشر ميلادي، وكان أوّل عمل أنجز في هذا المجال هو ما قام به جوستاف فايل [49] Gustav weil في كتابه "مدخل تاريخي نقدي للقرآن"، حيث قسّم القرآن إلى أربع مراحل زمنيّة ما بين مكّي ومدنيّ، وقد صدرت الطّبعة الأولى لهذا الكتاب سنة 1844 م، ثم أعيد طبعه بعد إدخال إضافات وتنقيحات عليه سنة 1872 م.

وبمجرّد أن أصدر تيودور نولدكه كتابه "تاريخ القرآن" سنة 1860 م، حتّى تحوّلت أنظار الباحثين إليه، وأصبح مركز اهتمام المستشرقين ومراجعاتهم، ولم يعد الالتفات إلى جوستاف فايل، والإحالة إلى كتابه : "مدخل تاريخي نقدي للقرآن" سوى من باب الإشارة العابرة والسّريعة إلى مرحلة سابقة. رغم أن نولدكه تبنّى منهج سلفه في تقسيم القرآن إلى أربع مراحل زمنية لكنّه انفصل عنه في مستوى النّتائج التي توصّل إليها.

(49) جوستاف فايل: مستشرق ألماني يهودي الدّيانة، ولد في 24 أفريل 1889 وتوفّي في 30 أوت 1889م. تعلّم العبريّة والفرنسية على يد معلّم خصوصي في منزله. وفي سنّ الثانية عشرة من عمره أقام عند جدّه الّذي كان آنذاك الحاخام الأكبر للمجمع الإسرائيلي، فأدخله جدّه هذا مدرسة تلمودية (عبريّة يهوديّة) في هذه المدينة. وعاد إلى ألمانيا، وقد بلغ السابعة عشرة ليتمّ دراساته الرّبانية (اليهودية). ومن أبرز مؤلّفاته "النبيّ محمّد : حياته ومذهبه" و"مقدّمة تاريخية نقدية إلى القرآن" وفيه يتكلّم عن جمع القرآن والتسلسل التّاريخيّ لسوره وآياته، و"الأساطير الكتابية (نسبة إلى العهد القديم من الكتاب المقدّس) عند المسلمين"، وقد جمع فايل هذه الأساطير من كتب التفسير وقصص الأنبياء. نقلا عن : بدوي، عبد الرّحمن - موسوعة المستشرقين، ص 390 - 391.

ويبدو أنّ الباحثين في الغرب، قد شعروا بعدم قدرتهم على فهم القرآن، وأنّهم يتعاملون مع كتاب لا يستطيعون التّعمّق في جوهر رسالته بفعل غربتهم الروحيّة والدّينية عنه، ويعدّ هذا الأمر في الواقع سببا من أسباب عجزهم وضعفهم في التعاطي مع القرآن، ولكنّهم حاولوا تحميل القرآن سبب عجزهم هذا، فانساقوا وراء الادّعاء بأنّه كتاب غامض ومضطرب، وسارع أجنتس جولدتسيهر إلى الإعلان بأنّه "لا يوجد كتاب تشريعيّ، اعترفت به طائفة دينيّة اعترافا عقديّا على أنّه نصّ منزل أو موحى به، يقدّم نصّه في أقدم عصور تداوله مثل هذه الصّورة من الاضطراب وعدم الثّبات، كما نجد في نصّ القرآن" (50)، وتابعه ريجيس بلاشير بقوله : "هذا التنظيم في مصحف عثمان، كانت نتيجته خلل لا دواء له في الترتيب التّاريخيّ للنّصوص الّتي نزلت على محمّد" (51)، ومضى بلاشير قائلا : "فيمكننا القول إنّنا نقرأ القرآن بتاريخ معكوس" (52)، ولم يكتف بلاشير بما ذكر بل واصل القول في نفس السياق : "وقلّما وجدنا بين الكتب الدّينية الشّرقية كتابا بلبل بقراءته دأبنا الفكريّ أكثر ممّا فعله القرآن. فإنّا معشر الاختصاصيّين في الإسلاميّات، حتّى ولو بذلنا جهدا وافرا لبعث الجوّ الّذي نمت فيه دعوة محمّد، نكتشف تنافرا يتعذّر دفعه بين هذا الجوّ وبين الشّكل الّذي اتّخذه المصحف : فأمام هذا النّص الشّائك بصعوباته، الكثير الغموض، والمدهش بأسلوبه الإيجازيّ الّذي يغلب عليه التلميح، نتوقّف ملتمسين الفكرة الرّئيسيّة الّتي تصل فيما بينها بمنطق كامل قصصا وشروحات يصعب الكشف عن ترابطها" (53)، ويُرجِع بلاشير فضل حلّ جميع هذه

(50) نفس المرجع ، ص 38.

(51) بلاشير - القرآن - ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني - ط 1 - 1974م، ص 38.

(52) نفس المرجع، ص 38.

(53) نفس المرجع، ص 41.

الإشكالات التي ادّعى وجودها في النّص القرآني إلى الإنجاز الّذي تحقّق على يدي تيودور نولدكه، وتوسّع بلاشير في الإشادة بهذا الإنجاز في أكثر من مناسبة، منها قوله على سبيل المثال : "وبفضل نولدكه ومدرسته، أصبح ممكنا، من الآن وصاعدا، أن نوضّح للقارئ غير المطّلع ما يجب أن يعرفه عن القرآن، ليفهمه بنوعيته، وليتخطّى القلق الّذي ينتابه عند اطّلاعه على نصّ يغلب عليه الغموض وتكثر فيه الألغاز، ويصعب دائما تتبّعه في سياقه الّذي لا يرافق المراحل الأربعة المتتالية لدعوة محمّد في مكّة والمدينة" [54].

ولكنّ هذا الفضل الّذي ينسبه بلاشير إلى نولدكه يبقى أمرا مثيرا للجدل وغير مسلّم به إذا ما قمنا بعرضه على قواعد البحث العلميّ الّتي تقوم على الموضوعيّة والتقيّد بالأمانة العلميّة ومدى التزام الباحث نفسه بما توصّل إليه من نتائج، ذلك أن إعادة الترتيب لسور القرآن الكريم الّتي ضبطها نولدكه كانت عمليّة ظنّية تخمينيّة، بالإضافة إلى أنّها اعتمدت على مرجع تسبّب في تقويض النّتائج الّتي توصّل إليها من أساسها، فقد بادر جورج تامر مترجم كتاب "تاريخ القرآن" إلى تصدير ترجمته بصفحة عنوانها : "ملاحظات لتسهيل استعمال الكتاب"، وقد ورد فيها ما يلي : "استخدم نولدكه وأتباعه الّذين اشتركوا في تأليف هذا الكتاب طبعة فلوغل [55] (Flugel) للقرآن التي صدرت في ألمانيا عام

(54) نفس المرجع، ص21.

(55) جوستا ف فلوغل، مستشرق ألماني كبير، ولد في 18 فيفري 1802 وتوفّي في 5 جويلية 1870 م، ومن أهمّ آثاره "طبعة للنّص العربي للقرآن" Corani textus arabicis ، ط 1 في حجم الربّع، ليتسك 1834، ط1842، ط 1858، عند النّاشر توخنتس Tauchnitz في ليتسك". وقد صارت هذه الطبعة هي المعتمدة عند المستشرقين من ذلك التّاريخ حتّى اليوم، على الأقلّ في ترقيم آيات القرآن. نقلا عن : بدوي، عبد الرّحمن - موسوعة المستشرقين، ص 411 - 412.

1834م، وذلك قبل صدور طبعة الأزهر 1344 هـ / /1952 م. ويختلف تعداد الآليات في بعض السّور بين الطّبعتين" [56]، ولكنّ ما ورد في الموسوعة الإسلامية في الطّبعة الفرنسية يشير إلى أنّ المشكل يتجاوز قضية اختلاف "تعداد الآيات في بعض السّور بين الطّبعتين". إذ تتحدّث هذه الموسوعة عن "أنّ طبعة فلوغل هي الأكثر استعمالا في الغرب، وأنّه لم يتّبع في ترتيبه للسّور أيّ تقليد شرقيّ، وأنّه بسبب حرصه على ضبط نصّ أفضل للقرآن، قام بعدّة تغييرات في ترقيم الآيات، فأحدث تغييرا في أرقام أكثر من نصف السّور القرآنية" [57].

ولا شكّ أنّ هذه الملاحظة الّتي ذكرناها في خصوص المرجع الّذي اعتمد عليه نولدكه في ترتيبه لسور القرآن الكريم ذات أهمية بالغة، ولا يجوز تجاوزها قبل أن نورد الملاحظات التّالية حولها باعتبار ما بينها وبين النّتائج الّتي سيتوصّل إليها نولدكه من علاقة مباشرة.

ذلك أنّ أوّل ما يمكن أن نلاحظه في طبعة فلوغل للقرآن الكريم هو أنّه لم يقم بنشر القرآن كما هو متداول وموجود بين أيدي المسلمين، وإنّما أباح لنفسه أن يتصرّف في هذه الطّبعة على أكثر من صعيد، إذ قام بتغييرات في مستوى ترقيم الآيات حسبما ساقته إليه ظنونه وتخميناته.

(56) نولدكه - تاريخ القرآن - صxxv.

(57) ومن المفيد في خصوص هذه المسألة بالذّات أن نورد أصل النّص الفرنسيّ نقلا عن الموسوعة الفرنسيّة، ليطّلع القارئ مباشرة على خطورة انعدام الأمانة العلمية، والإقدام على إصدار نسخة للقرآن الكريم أدخل ناشرها على النّص الأصليّ والصّحيح تغييرا وتبديلا لترقيم الآيات ، بقصد إعادة ترتيبه وتنظيمه حسب زعمه:

Le texte du Kur'àn le plus largement utilisé en Occident jusqu'à une date récente est celui de Gustav Flügel (1834) qui ne suit aucune tradition oriental. S'efforçant de fixer un texte amélioré, Gustav Flügel a opéré de nombreux changements dans la division en versets et modifié la numérotation dans un peu plus de la moitié des sourates - Encyclopédie de l'Islam, TomeV, p.412.

فأدخل على أكثر من نصف آيات سور القرآن نظاما ترقيميّا جديدا دون مراعاة للموضوعية والأمانة العلميّة. فصارت هذه الطبعة للقرآن عملا يتميّز بالتصرّف وعدم التقيّد بالنّص الأصليّ، ولا بدّ من المبادرة إلى التّنبيه في هذا الإطار إلى أن النّتائج الّتي توصّل إليها نولدكه، بناء على اعتماده على طبعة فلوغل للقرآن، لا يمكن التّسليم بصحّتها ولا بجدواها، باعتبار أنّ كل عمل انطلق من مقدّمات باطلة فهو باطل، لا يمكن أن يكون له حظّ من الصّحّة والتّوثيق، وهذا ما أذعن له نولدكه نفسه حينما أقرّ التّخلّي عن النّتائج الّتي سبق له أن أعلنها، كما سنبيّنه في هذا البحث لاحقا.

وإنّ واجب الالتزام بالموضوعيّة والأمانة في التّعاطي مع النّصوص، يقتضي منّا الإشارة إلى طريقة تعامل أهل الكتاب من اليهود والنّصارى مع النّصوص المقدّسة، فقديما امتدّت أيديهم إلى تغيير التّوراة والإنجيل بدافع أسباب متعدّدة وتحت مسمّيات مختلفة، ولم يكفهم ما فعلوه مع كتبهم السّماوية المقدّسة الّتي أمرهم الله بالمحافظة عليها، ولكن دون طائل، فتجرّؤوا على القرآن أيضا، وقاموا بطبعه أو ترجمته محرّفا ومشوّها بدعوى الحرص على تقديم نصّ أفضل للقرآن من صيغته الأصليّة. وحاولوا المراهنة على أن تحلّ طبعاتهم هذه محلّ القرآن الأصلي بمرور الزّمان، فيكون ذلك سببا في إدخال البلبلة والاضطراب عليه، وذلك من منطلق إشاعة نسخ قرآنية مختلفة لتكون مدخلا إلى إثارة الجدل باستمرار حول ما يطلق عليه "اختلاف النّسخ القرآنية".

إنّ ما ينبغي التّأكيد عليه والإذعان له إذن، هو أنّ النّسخة القرآنية التي اعتمد عليها نولدكه في إنجاز بحوثه حول تاريخ القرآن لا تمتّ إلى القرآن الّذي يحتكم إليه المسلمون بصلة وثيقة، وهذا أمر غاية في

الأهمّية، لأنّه سيؤدّي بالضّرورة إلى الانفصال عن القرآن الحقيقيّ، الموجود بين أيدي المسلمين، والشّروع في الحديث عن قرآن جديد لا وجود له إلاّ في توهّم المستشرقين وظنونهم.

المنهج الذّي اتّبعه نولدكه في تقسيمه القرآن إلى مكّي ومدنيّ :

لم يعد المنهج الّذي اتّبعه نولدكه في تقسيمه القرآن إلى مكّي ومدنيّ من المباحث الّتي تحتاج إلى استقصاء وتتبّع، بعد أن تناولت هذه المسألة العديد من المراجع والمصادر الغربيّة بشكل مفصّل، لكنّنا نفضّل التّعويل في تناول هذه القضية على ما ذكره نولدكه نفسه في تقسيمه للقرآن إلى أربع مراحل، ثلاثة منها مكّية والرّابعة مدنيّة، ولقد اتّخذ لكل مرحلة من هذه المراحل عددا من العلامات الّتي تميّزها عن غيرها، وسنحاول تفكيكها وتقديمها على شكل نقاط نستخرجها ممّا ذكره في مستهلّ حديثه عن كلّ فترة من الفترات، مع المحافظة على العبارات والألفاظ الّتي استعملها نولدكه، سعيا منّا إلى نقل ما سنورده في هذا السّياق بأمانة وصدق.

أوّلا - سور الفترة المكّية الأولى :

يرى نولدكه أنّ سور هذه المرحلة تتميّز بالخصائص التالية :

1 - اللّه يتكلّم بنفسه، ويتراجع الإنسان تماما كما لدى أنبياء بني إسرائيل.

2 - الكلام عظيم، جليل، مفعم صورا صارخة، والنبرة خطابيّة تحتفظ بلونها الشّعري الكامل.

3 - الآيات قصيرة تعكس الحركة الشّغوفة الّتي تتقطّع مرارا بسبب تعاليم بسيطة وهادئة، ولكنّها زاخرة بالقوّة.

4 - الكلام بأسره محرّك إيقاعيّا وذو جرس عفويّ جميل.

5 - مشاعر النّبيّ وظنونه تنطق عن نفسها أحيانا بواسطة غموض المعنى، الّذي يُلَمَّح إليه بالإجمال، أكثر ممّا يستفاض في شرحه.

6 - من العلامات الفارقة والمميّزة لهذه الفترة كلمات القَسَم الّتي ترد فيها كثيرا - 30 مرّة - مقابل مرّة واحدة في السّور المدنيّة، في سورة التّغابن 64 : 7.

7 - كما اتّخذ محمّد عن الكهّان الوثنيّين أسلوب السّجع، أخذ عنهم أيضا عادة تقديم أقوالهم بواسطة أقسام احتفاليّة، مستدعين كشهود عليها، أقلّ مرتبة من الآلهة، مختلف الظّواهر الطّبيعيّة، مثل المناظر، الحيوانات والطّيور، اللّيل والنّهار، النّور والظّلمة، الشّمس والقمر والنّجوم والسّماء والأرض.

8 - مازلنا، شأننا شأن المفسّرين المسلمين منذ القديم، نجد صعوبة في فهم فئة من عبارات القسم، يقسم فيها بمجموعة من الأشياء أو الكائنات الأنثوية.

9 - معظم سور هذه الفترة قصير _ من بين 48 سورة يتألّف كلّ من 23 سورة من أقلّ من 20 آية، و 14 سورة من أقلّ من 50 آية، إذ أنّ الوجد الشّديد الّذي انبعث منه لم يكن في وسعه أن يدوم طويلا [58].

وأما التّرتيب التّاريخيّ الّذي اقترحه نولدكه لسور الفترة المكّية الأولى، فهو التّالي :

(58) نولدكه - تاريخ القرآن، صص 68 - 70.

العلق - المدّثّر - المسد - قريش - الكوثر - الهمزة - الماعون - التكاثر - الفيل - الليل - البلد - الشّرح - الضّحى - القدر - الطّارق - الشّمس - عبس - القلم - الأعلى - التّين - العصر - البروج - المزّمّل - القارعة - الزّلزلة - الانفطار - التّكوير - النّجم - الانشقاق _ العاديات - النّازعات - المرسلات - النّبأ - الغاشية - الفجر - القيامة - المطفّفين - الحاقّة - الذّاريات - الطّور - الواقعة - المعارج - الرّحمن - الإخلاص - الكافرون - الفلق - النّاس - الفاتحة (59).

ثانيا - سور الفترة المكّية الثانية :

استنتج نولدكه العديد من الخصائص الّتي تميّز سور الفترة المكّية الثّانية، وقد حاولتُ عرض أهمّ ما جاء فيها مرقّمة، ليكون تتبّعها والانتباه إلى أهمّيتها أكثر يسر للقارئ، مع الملاحظة أنّ جميع هذه النقاط مستخرجة حرفيا من كتاب "تاريخ القرآن" نفسه :

1 - ليس لهذه السّور أيّ طابع مشترك، فبعضها يشبه سور الفترة الأولى، بينما البعض يشبه سور الفترة الثالثة.

2 - نلاحظ في هذه السّور الانتقال من الحماس العظيم إلى قدر أكبر من السّكينة في السّور المتأخّرة الّتي يغلب عليها الطّابع النّثري.

3 - أشار نولدكه إلى رأي فايل Weil القائل إنّ أحد أهمّ أسباب هذا التّعديل الأسلوبيّ هو سعي محمّد إلى تعطيل الشّك بأنّه شاعر أو كاهن، لكنّ نولدكه يذهب إلى أنّه لا يمكن التّعويل على هذا الرّأي كثيرا، لأن الانتقال في الأسلوب لم يحصل فجأة، كما عن نيّة واعية، بل تمّ تدريجيا.

(59) نفس المرجع، ص XXXVI.

4 - توقّد الحماس الأوّليّ خفّت حدّته بسبب إحباطات الواقع.

5 - التكرار المستمرّ للأفكار نفسها الّتي كانت تسقط مرّة إثر مرّة على أرض غير خصبة، أثّر سلبا على الشّكل الفنّي للعرض.

6 - كان على مخيّلة محمّد أن تتخلّى أكثر فأكثر عن الاندفاع والأصالة كلّما ازداد اهتمامه بالحاجات العمليّة للجماعة النّاشئة.

7 - التّأمّل الهادئ حلّ أكثر فأكثر محلّ الخيال العنيف الإثارة والحماس في الفترة الأولى.

8 - حاول النبيّ أن يوضّح جمله بواسطة أمثلة كثيرة مأخوذة من الطّبيعة والتّاريخ، لكنّه يكدّس هذه الأمثلة، بعضها فوق بعض، أكثر ممّا يرتّبها منطقيّا، فيجنح إلى الإطناب، ويصبح مرتبكا، مملاّ.

9 - الطّريقة الّتي يتّبعها النّبيّ ضعيفة. وما يستنتجه لا يقنع الخصوم. وهذا لا يعني أنّ السّور المتأخّرة تخلو من مواضع جميلة وجليلة، فقدرة الأفكار الّتي جعلت منه نبيّا تظهر من حين إلى آخر.

10 - آثار الرّوح الشّعريّة الّتي تبرز بكثافة أصبحت ضعيفة، لكنّها لا تختفي تماما.

11 - المقاطع الوصفيّة تتّسع باستمرار وتصبح أضعف عاطفة. أمّا الهدوء الّذي يقوى، فيعبّر عن نفسه بالطّول المتزايد للآيات والسّور.

12- تحلّ محلّ الإعلانات النّاريّة مناقشات مستفيضة للعقائد، لا سيّما لمعرفة اللّه من خلال الآيات المنتشرة في الطّبيعة.

13 - ترد إضافة إلى ذلك قصص طويلة عن حياة الأنبياء السّابقين، تستخدم لإثبات التّعاليم وإنذار الأعداء ومواساة الأتباع.

14 - محمّد يترك رسل اللّه القدماء يتكلّمون بأسلوبه الخاص.

15 - قصّة موسى هي أكثر القصص التي يردّدها محمّد، وقد شعر حينذاك أنّه أقرب الأنبياء إليه.

16 - تغيير الأسلوب باستخدام خطاب أساليب جديدة، والتخلّي عن الطّرق القديمة. وهكذا تختفي علي سبيل المثال الأقسام المعقّدة الّتي تميّز الفترة القديمة شيئا فشيئا .. حتّى تختفي هذه الأقسام تماما في الفترة الثالثة.

17 - بالمقابل بدأ النّبيّ في هذه المرحلة إعطاء السّور الّتي صدرت غالبا عن تأمّل هادئ عناوين شكليّة للمصادقة على مصدرها السّماوي، بمعنى "هذا وحي الله"، وما شابه. أو يعلن عن نفسه أنّه النّاطق بالكلمات الإلهيّة، بواسطة كلمة "قل" الّتي لا توجد أبدا في السّور الأقدم.

18 - في هذه الفترة أطلق محمّد على إلهه اسم "الرّحمن" إلى جانب اسم الله الّذي كان معروفا لدى المشركين. اسم الرّحمن الّذي يرد قبل ذلك مرّة واحدة فقط، سيتردّد الآن في بعض المواضع أكثر من اسم الله المعتاد، [60] ثم يقتصر وروده في الفترة الثالثة على مواضع قليلة، إلى أن يغيب تماما في السّور المدنيّة.

19 - تسمح سور هذه الفترة بقدر أكبر من السّهولة، بإخضاعها لشيء من التّرتيب الزّمني، ولا يصحّ هذا بالطّبع إلا بصورة عموميّة. أمّا الحيّز الدّقيق الّذي تحتلّه كلّ سورة إزاء السور الأخرى، فلا يمكننا [61] تحديده هنا بالتّأكيد [62].

وتناول نولدكه تحليل سور المرحلة المكّية الثّانية مرتّبة على النّحو التّالي :

(60) حوالي 50 مرّة، وأكثرها في سورة مريم (16 مرّة).

(61) المتكلّم هنا هو نولدكه نفسه.

(62) نولدكه - تاريخ القرآن، صص 105 - 108.

القمر - الصّافات - نوح - الإنسان - الدّخان - ق - طه - الشعراء - الحِجْر - مريم - ص - يس - الزّخرف - الجنّ - المُلك - المؤمنون - الأنبياء - الفرقان - الإسراء - النّمل - الكهف [63].

ثالثا - سور الفترة المكّية الثالثة :

كان لنولدكه من سور المرحلة المكّية الثالثة موقف سلبيّ إلى حدّ بعيد، ووجد نفسه غير قادر على التّعامل معها في نطاق ما ادّعاه من القدرة على إعادة ترتيب السّور القرآنية حسب تاريخ نزولها. وتبدو حيرته واضحة في التعامل مع القرآن باعتبار الغربة الشّديدة الّتي يشعر بها، وهو يعبّر عن هذه الغربة على لسان كلّ الغربيّين من اليهود والنّصارى، سواء كانوا من المختصّين في الدّراسات القرآنية أم من سواد النّاس. وقد وردت الخصائص المميّزة للفترة المكّية الثّالثة حسبما توصّل إليه نولدكه ضمن النّسق التّالي :

1 - ما تكوّن في الفترة الثّانية تدريجا من أسلوب ولغة ومعالجة للمواضيع يبرز في الفترة الثّالثة بشكله النّهائيّ.

2 - اللّغة تصبح مطنبة، واهية، نثريّة.

3 - الآيات والسّور تصبح مملّة في كثير من الأحيان بسبب التّكرار الّذي لا نهاية له. فالنّبيّ لا يتورّع عن ترداد الكلمات نفسها تقريبا، والبراهين تفتقر إلى الوضوح والحدّة. ولا تقنع إلاّ من يؤمن سلفا بالنتيجة النّهائية. والقصص لم تعد تأتي سوى بالقليل من التّنوّع.

(63) نفس المرجع ، ص XXXVI .

4 - من لا يعير اهتماما للّغة الأصل ولمسائل تاريخ الأديان لن يتغلّب على نفسه، فيقوم بقراءة الأجزاء المتأخّرة من القرآن مرّة ثانية (64).

5 - الطّول النّامي للآيات له علاقة وثيقة بالأسلوب الّذي يصبح أكثر نثرية.

6 - لم يبق من القالب الشّعري إلا الفاصلة.

7 - الفاصلة تولّد في كثير من الأحيان انطباعا مؤثّرا بوصفها ختاما معنويا قويّا، لكنّها أيضا مشوّشة في كثير من الأحيان، ويبدو أنّها تعامل بإهمال شديد، وتقتصر تقريبا على أسهل الأشكال : واو نون، ياء نون، إلخ...

8 - بعض مقاطع السّور طويل جدّا، ولعلّ بعض هذه المقاطع الطّويلة جُمعت من مقاطع أقصر، ضُمّ بعضها إلى البعض الآخر، حتّى لو لم يكن في وسعنا دائما التّعرّف على صدوعها.

9 - من خصائص الفترة الثّالثة المخاطبة بقول : "يا أيّها النّاس".

10 - نظرا إلى اختفاء التّطوّر تقريبا في سور الفترة الثّالثة تضعف لدينا إمكانية القيام بترتيب تاريخيّ لها عمّا كانت تسمح به الفترتان السّابقتان (65).

وأمّا السّور الّتي أدرجها نولدكه ضمن المرحلة المكّية الثّالثة، فهي :

(64) وأضاف نولدكه في الهامش رقم 522 بالصّفحة 128 : "كان محمّد في أحسن الأحوال ذا أسلوب متوسّط المستوى". وتقوم أهمّيته ككاتب على اصالته، إذ خلق لوثيقة دينه.

(65) نولدكه - تاريخ القرآن، صص 128 - 129.

السّجـدة - فصّلت - الجـاثية - النّحل - الرّوم - هـود - إبراهيم - يوسف - غـافـر - القـصص - الزّمر - العنكبوت - لقمـان - الشّـورى - يونس - سبأ - فاطر - الأعراف - الأحقاف - الأنعام - الرّعد [66].

رابعا - سور المرحلة المدنيّة :

تعـرّض نولدكـه قبل تحليله للسّـور المدنيّـة إلى ذكـر "أسبـاب النّجـاح الّذي لقـيه الإسـلام في يثـرب" [67]، وردّ ذلك إلى "أن أهـل المدينة كـانوا مطّلعين على أهم تعـاليم الإسـلام بواسطة اليـهـود الّذين تواجـدوا هناك بكثـرة، والقبائل المسيحيّة الّتي كـانت تقيم إلى جـوار المدينة" [68]، ويبدو أن نولدكـه لم يكن بإمكانه التـحـرّر من التـأثيـرات اليـهـودية الّتي كـانت تحرّكه باستمرار وتفرض عليه اتّجاها معيّنا في التّحليـل، حتّى أنّه ادّعى على سبيل الظّن والتّخمين القدرة على قراءة مـا كان يـدور بخلد النّبيّ محـمد عليه الصلاة والسلام، وعبّر عن هذا الأمر بقوله : "ويبـدو أنّ ما دار في خلده كان تأسيس ثيوقراطيّـة تشبه الثيوقـراطية الموسويّة، يكون فيها "اللّه ومحمّد" المرجع الأخير في كلّ النّزاعات [59].

ثم تناول نولـدكـه ثلاث قضايا أسـاسيـة لهـا صلة مبـاشـرة بالمرحلة المدنيّة، وهي :

أوّلا - العناصر البشريّة الّتي تعاطى معها القرآن المدني :

وأبرز النّقاط الّتي ذكرها نولدكه في هذا المضمار، هي :

---

(66) نفس المرجع ، ص XXXVI.

(67) نفس المرجع، ص 149.

(68) نفس المرجع، ص 149.

(69) نفس المرجع، ص 150.

1 - لم يكن القرآن في الفترة المدنيّة يتعرّض للمشركين الّذين شنّ عليهم الحرب في مكّة إلا نادرا.

2 - لم يكن القرآن المدنيّ يتحدّث عن النصارى الّذين كانوا يقيمون بعيدا عن يثرب، ولم يصطدم بهم محمّد في سنيّه الأخيرة، إلاّ نادرا أيضا.

3 - بالمقابل ، كثيرا ما كان يهاجم محمد اليهود بعد الهجرة بقدر أكبر من الحدّة.

4 - وكثيرا ما كان يوبّخ "المنافقون" بحدّة، فإذا كان عليه أن يراعيهم في تصرّفاته، فهو يطلق في القرآن العنان لعواطفه، وذلك من دون ذكر الأسماء.

5 - سعى محمّد إلى اكتساب ولاء العرب الآخرين الّذين اعتنقوا الإسلام سطحيّا بواسطة الإحسان أكثر منه بتدابير وكلمات قاسية تنفّرهم منه.

ثانيا - المضامين الّتي ظهرت في القرآن المدنيّ :

اعتبر نولدكه أنّ أهمّ المضامين وأبرز التّعاليم الّتي أتى القرآن المدنيّ على ذكرها، هي :

1 - غياب التعاليم العقائديّة أو الأخلاقية إلاّ نادرا، وذلك بسبب التّعرّض لها بشكل مفصّل في القرآن المكّي.

2 - بروز النّبيّ كقائد في ميدان القتال، يمدح المسلمين أو يلومهم بحسب ما تمليه الظّروف، خاصّة بعد نصر أو هزيمة.

3 - أصبح للآيات الّتي لها طابع تشريعيّ قدر كبير من الأهمّية.

4 - لم يتّبع القرآن نظاما ثابتا في التشريع، بل انبعثت كثير من التّشريعات عن قرارات مختلفة حول مسائل تشريعيّة متنازع عليها.

5 - تناول السّور المدنيّة بعض الوصايا المتعلّقة بالمسائل البيتيّة للنبيّ [70]، أيضا.

ثالثا - خصائص اللّغة والأسلوب في القرآن المدنيّ :

ذكر نولدكه أنّ القرآن المدنيّ يتميّز ياالخصائص التّالية فيما يتعلّق بمستوى اللّغة والأسلوب :

1 - الأمور الجديدة الّتي دخلت بعد الهجرة في اهتمامات محمد، وصارت تعالج في السّور، سبّبت فيها بالتّأكيد اختلافات بالغة مقابل أسلوب الفترة المكّية الأخيرة.

2 - التعابير والمصطلحات الجديدة تستعمل فقط حين تقتضي المادّة ذلك. وهذا ما يظهر على أوضح وجه في الشّرائع، ويتجنّب في صياغتها كلّ تزيين خطابيّ.

3 - بقي محمّد ملتزما بالنّظم الّذي يتألّف في أحيان كثيرة من زيادات فائضة تجعله عنصرا أسلوبيا مشوّشا.

4 - بما أنّ النّبيّ لا يتوجّه في المرحلة المدنية إلى النّاس عموما كما كانت الحال في مكّة، فإنّ المنادى "يا أيّها النّاس" نادر جدّا، وكثيرا ما يستعمل النّداء "يا أيها المؤمنون"، وأندر منه أن يقال "يا أيها اليهود" و"يا أيها المنافقون".

(70) يبدو أنّ مراد نولدكه من "المسائل البيتيّة للنبيّ" الأحكام الّتي تنظّم علاقة النبيّ بأمّهات المؤمنين خاصّة.

5 - توجد في السّور المدنية مواضع مفردة، قويّة الأسلوب، شعرية.

6 - يقلّ حجم الآيات المدنيّة - وهي تحتوي في الغالب على تشريعات قصيرة ومخاطبات وأوامر، وما شابه - في الأصل عن حجم معظم الآيات المكّية المتأخّرة الّتي تتألّف من خطابات مسهبة.

7 - تسبّب التّشابه في المضمون بجمع كثير من الآيات المدنيّة إلى سورة واحدة. وهذا ما يفسّر كون السّور المدنيّة هي الأطول في قرآننا الحالي.

8 - إنّ تطوّر استعمال اللّغة الّذي لاحظناه قبل الهجرة لا يلاحظ بعدها في أقصى الأحوال إلاّ في آثار متفرّقة.

9 - كلّ من اهتمّ بتاريخ محمّد يلاحظ فورا الفرق الموجود بين رواية الأحداث قبل الهجرة وبعدها.

10 - وصلتنا بعض الذّكريات الأكيدة من الزّمن الّذي سبق الهجرة بواسطة دائرة صغيرة من الأشخاص دون تسلسل تاريخي أكيد، وكثير من الحكايات الخرافية.أمّا بعد الهجرة، فالتّاريخ الصّرف هو الجزء الأساسيّ، وهذا يخوّلنا أن نتتبّع الأحداث من سنة إلى أخرى، وهذا ما يجعل إعداد ترتيب زمني للسّور المدنيّة يحتوي على عناصر أكيدة، لكن يبقى بالطبع الكثير ممّا هو غير مؤكّد، إذ أنّ بعض المقاطع لا يمكن تحديد زمن نشوئها إلاّ على وجه التّقريب. (71).

وقد أدرج نولدكه السّور التالية ضمن ترتيبه للسّور المدنيّة حسب تاريخ النّزول الّذي ارتآه :

(71) نولدكه - تاريخ القرآن، صص 152 - 155.

البقرة - البيّنة - التّغابن - الجمعة - الأنفال - محمّد - آل عمران - الصّف - الحديد - النّساء - الطّلاق - الحشر - الأحزاب - المنافقون - النّور - المجادلة - الحجّ - الفتح - التّحريم - الممتحنة - النّصر - الحجرات - التّوبة - المائدة (72).

أهمّ المسائل الّتي أثارها نولدكه في معرض بحوثه حول ترتيب سور القرآن :

لقد تعرّض تيودور نولدكه عند محاولته ترتيب سور القرآن إلى إثارة العديد من القضايا والمسائل الحسّاسة الّتي تمسّ الإسلام في صميم معتقداته الأساسيّة، بما في ذلك من تداعيات على مواقف المسلمين قاطبة إزاء كلّ ما يسيء إلى القرآن ومقام النّبوّة وأمّهات المؤمنين، وإن هذه الآراء الصّادرة عن نولدكه تجعل كلّ محاولات التبرير والدّفاع عنه لا تجدي نفعا، إذ هي لم تترك سبيلا للطّعن في الإسلام والمسلمين إلاّ سلكته تحت غطاء البحث الأكاديمي والموضوعيّة العلميّة، ونحن إذ نسوق بعض الاستنتاجات الّتي أعلنها نولدكه في كتابه "تاريخ القرآن" بقدر ما تسمح به المساحة المخصّصة لبحثنا، فإنّنا نفضّل إرجاء مناقشتها إلى فرصة أوسع، لا سيّما وأن نولدكه نفسه قد نقض ما نسجه من أفكار بإقراره التّراجع عنها حسبما سنورده من تصريحاته في هذا الغرض لاحقا.

1 - التعرّض للنّبي بعبارات نابية :

ويتجلّى هذا الأمر بلا مبالغة في أغلب صفحات كتاب "تاريخ القرآن"، وهي ادّعاءات محض، نقدّم منها إلى القارئ بعضا ممّا صرّح به نولدكه في كتابه :

(72) نفس المرجع، ص XXXVI.

- "وجب على محمّد، وهو مفكّر بسيط، أن يعتبر كلّ شيء مباحا، ما لم يتعارض هذا الشّيء وصوت قلبه" (73).

- " فإنّه لم يتوان عن استخدام وسائل مرذولة، أجل حتّى ما يسمّى الخداع باسم الدّين، من أجْل نشر ما آمن به"، وأضاف في الهامش رقم 9 من نفس الصفحة : "هذا لا ينطبق فقط على المجال الدّيني، بل على المجال السياسي وسواه أيضا" (74).

- "يضاف إلى ذلك أمر يودّ المسلمون بالطّبع أن يخفوه ألا وهو أنّ محمّدا كان بطبعه ضعيف العزم، أجل لقد كان يخاف إلى درجة أنّه لم يتجرّأ في البدء على المجاهرة برسالته" (75).

- "غير أنّ روح محمّد كان يشوبه نقصان كبيران يؤثّران على سموّه" (76)، وهذان النّقصان هما حسبما ذكر نولدكه هو أنّه"كانت تعوزه القدرة إعوازا شبه تامّ" والثّاني هو أنّه"لم يختبر اعتقاده إطلاقا، بل اتّبع الغريزة الّتي كانت تدفع به تارة إلى هنا وطورا إلى هناك..." (77).

- "بسبب تفسير حرفيّ خاطئ لسورة الشّرح 1 : 94، مرتبط بما يروى عن نوبات الصّرع الّتي كانت تعتري محمّدا في طفولته" (78).

- "ويبدو محمّد في الآية المذكورة انتهازيّا، ربّما بقدر أكبر ممّا يسمح به النّص الحالي" (79).

(73) نفس المرجع، ص 6.
(74) نفس المرجع، ص6.
(75) نفس المرجع، ص5.
(76) نفس المرجع، ص5.
(77) نفس المرجع.
(78) نفس المرجع، ص 84.
(79) نفس المرجع، ص 168، الهامش رقم 695.

- "يلخّص محمّد في الآيات 152/153 - 168/170 كلّ ما في قلبه من حقد على اليهود" [80].

- "ويعتبر الباحث نفسه لأسباب مقنعة أن الآية 192/196 ب أضيفت في زمن حجّة الوداع (في السنة العاشرة للهجرة) الّتي قام محمّد أثناءها بالعمرة إلى جانب الحجّ، واستغلّ انتهاءه من العمرة، ليخلع عنه الإحرام ويروي غليله من النّساء. لكنّ وجهاء الصّحابة، وأوّلهم عمر، استاؤوا من الأمر بشدّة، فاضطرّ اللّه إلى أن يبرّر عمل رسوله بآية جديدة" [81].

- "الاية 51/25 تربط بانتظام بالالهة المكّية اللاّت والعزّى ومناة، وقد أراد النّبيّ في إحدى ساعات الضّعف أن يجيز استمرار تكريمها" [82].

- "ويرى بعضهم علاقة بين هذه الآية وأسئلة أخرى حول أمور كان النّبيّ يجهلها أو لم تكن تليق به" [83].

إنّ نولدكه لم يجد سبيلا للإساءة إلى النّبيّ محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم إلاّ سلكه، إذ نراه يصفه بـ "مفكّر بسيط" و"لم يتوان عن استخدام وسائل مرذولة" و"يخدع باسم الدّين" وكان ذا "طبع ضعيف العزم" و"كان يشوبه النّقص" و"تعتريه نوبات الصرع في طّفولته" والنّبيّ في نظر

---

(80) نفس المرجع، ص 163.

(81) نفس المصدر، ص 168، ويتحدّث نولدكه في هذا السياق عن الاية 193/192 من سورة البقرة.

(82) نفس المصدر، ص 163، ويتحدّث نولدكه في هذا السياق عن الاية 193/192 من سورة البقرة.

(83) نفس المصدر، ص 163، ويتحدّث نولدكه في هذا السياق عن الاية 193/192 من سورة البقرة.

نولدكه يبدو "انتهازيّا" و"حاقدا على اليهود"، وكان "ضعيفا" و"جاهلا"، وهذه صفات لا نحتاج إلى التّعليق عليها لأننا لسنا في وارد استعمال مفردات من قبيل "تعصّب المستشرقين ضدّ الإسلام" أو "نفث نولدكه سمومه" أو أنّه "يهرف بما لا يعرف". إذ أنّ مقام النّبوّة عندنا بمثابة الشّجرة المباركة كلّما استهدفها المرء بالحجارة أغدقت عليه بمحاسن الشّمائل ومكارم الأخلاق وأقوم التعاليم، لكنّنا لا نستطيع في مقابل هذا الموقف أن نخفي عدم التسليم بما يحاول جمّ غفيرمن النّقاد إقناعنا به من خلال حديثهم عن الموضوعية والجدّية والرّصانة وإشباع الرّغبة في العلم وحبّ المعرفة الّتي يتحلّى بها نولدكه، إذ أنّ كلّ الأدلّة الصّريحة تشهد على بطلان هذه الإعلانات التي يطلقها أصحابها للدّعاية التي لا تقنع أحدا.

2 - فضيحة في بيت النّبيّ :

جمع نولدكه بين الإساءة إلى النّبيّ، والإساءة إلى أمّهات المؤمنين، وكلّ المسلمين، وذلك عندما نسب إلى النّبيّ محمّد عليه الصّلاة والسّلام الاعتداء على أعراض النّاس، واتّهم أمّهات المؤمنين بعدم المحافظة على الشّرف والعرض، وهذا ما من شأنه أن يفتح في قلب كلّ مؤمن جرحا عميقا وأذى بليغا من العسير السكوت عنه والتّهاون في حقّه، ذلك أن القرآن الكريم علّمنا تكريم الأنبياء جميعا، واحترام القدّيسين من كلّ الأديان والطّوائف، فنهانا عن استهدافهم بفاحش الكلام، وأمرنا بأن نجلّ شأنهم ونرفع مقاماتهم، رغم اختلافنا معهم في العقائد والشّعائر، لكنّ نولدكه لم يكن يعير أي اهتمام بهذه الأوامر والنّواهي الّتي تتّفق عليها جميع الأديان، فتحدث عن النّبيّ وزوجاته بمثل قوله :

- "يربط التراث بين الآيات الأولى من سورة التحريم 66 وفضيحة حصلت في بيت النّبيّ. فقد استعمل محمّد في أحد الأيام خيمة زوجته حفصة ليلتقي بأمته القبطية ماريا. ولم يكن في ذلك خرق للعادات الحسنة وحسب، بل أيضا انتهاك شديد لحقّ البيت الزّوجي. عادت حفصة إلى البيت في وقت غير متوقّع، وفاجأت الاثنين، فرمت النّبيّ بأقسى التّهم، وحرّضت عائشة وكلّ نسائه عليه. ولا بدّ أن غلطة قائدهم قد سبّبت بين المسلمين اضطرابا شديدا، وإلاّ لما كان اضطرّ إلى تبرير موقفه بوحي خاصّ. وتحمل هذه الرّواية ضمانة تاريخيتها في ذاتها" (84).

- "ويجمع النقل على أنّ المقصود هو مغامرة عائشة الّتي حصلت أثناء الحملة على بني المصطلق وأشاعت الشّك في أنّ زوجة النّبيّ زنت مع رجل غريب. ما من سبب يدفعنا هنا إلى التشكيك في صحّة ما يُجمع التّراث على نقله" (85).

إنّ نولدكه يبدو مصرّا على الادّعاء بأنّ التّراث أجمع على نقل هذه الحادثة رغم ما في هذا التّراث من غموض وتناقض يقضيان بضرورة مراجعته وغربلته، خاصّة فيما يتعلّق بهذه الحادثة بالذّات، وهو يصرّ في مقابل ذلك على عدم الالتفات إلى ما ورد في القرآن الكريم من حسم قاطع لهذه المسألة بنفيها من أساسها، وأنها كانت اختلاقا وإفكا أشاعته عُصبة من المرجفين.

ثم إنّنا لا نستطيع أن نجد أي معنى لما ورد في مقدّمة كتاب "تاريخ القرآن" من تأكيد على أنّ"ما من دين من أديان العالم الكبرى يسعى إلى

(84) نفس المرجع، ص 195.

(85) نفس المرجع، ص 189.

مجابهة الأديان الأخرى أو يريد صراعا بين الثقافات" [86]. كما أنّه لا يمكننا أيضا أن نفهم أيّ معنى للتّأكيد عند الحديث عن نولدكه بأنّ "انشغاله العلميّ بتعاليم الإسلام الأساسية أدّى إلى نشوء شكل من أشكال التفاهم قائم على التّسامح والاحترام..." [87].

نعم إنّنا دعاة تفاهم يقوم على التّسامح والاحترام، ولا يريد أحد من عقلاء المسلمين وحكمائهم مواجهة بين الثقافات والأديان والحضارات، ولكن على ألاّ تبقى هذه المسائل شعارات مجرّدة من كلّ مضمون وموضوع. وهل يتحقّق الاحترام للآخرين باتّهام الأنبياء والقدّيسين ونسبة الفاحشة بعبارات ساقطة إلى أمهات المؤمنين، ونحن ندرك مدى تأثّرهؤلاء المؤمنين من جميع الأديان إزاء الإساءات الموجّهة إلى أنبياء اللّه ورسله، بلا تمييز أو تفريق، سواء تعلّق الأمر بموسى أم عيسى أم محمّد عليهم الصّلاة والسّلام ؟

3 - *بشريّة القرآن :*

يعتقد المسلمون أنّ القرآن وحي سماويّ من عند اللّه سبحانه وتعالى نزل به الرّوح الأمين جبريل عليه السّلام على قلب محمّد سيّد المرسلين بلسان عربيّ مبين لفظا ومعنى، لا قدرة لأحد من الإنس والجنّ أن يأتي بمثله "ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا"، لأنّه كلام اللّه المعجز الّذي تولّى حفظه من التّحريف وصانه عن الزّيادة أو النقصان، ولكنّ نولدكه يأبى الخضوع لهذه المسلّمات التي تضافرت عليها الأدلّة العقلية والنّقلية، ويصرّ على نسبة القرآن إلى النّبي محمّد نفسه، فنولدكه يرى أنّ النّبيّ

(86) نفس المرجع، ص IX.
(87) نفس المرجع، ص X.

محمد عليه الصلاة والسلام كان مؤلّفا للقرآن، وكاتبا ومفكّرا بسيطا، بل ذهب إلى حدّ التّساؤل بأسلوب ساخر حول إمكانية امتلاك النّبيّ لأرشيف يرتّب فيه السّور، وفيما يلي نماذج من هذه التصريحات الّتي امتلأت بها صفحات كتاب "تاريخ القرآن" :

- " ... وهل كان أحد يودّ الافتراض أنّ محمّدا كان لديه أرشيف رتب فيه السّور بحسب تسلسلها الزّمني. لو كان هذا موجودا لكان قطعة جانبيّة جميلة إلى جانب الجوارير [88] الّتي نصبها فايل (Weil) بسخرية للسّور المفردة..." [89].

- "ولأنّ محمّدا يكرّر الكلام في كثير من الأحيان، يمكن التمييز بين الموضع الأصيل والموضع الّذي يحاكيه، وكما هي حال كل كاتب تتميّز لغة محمّد المستعملة في فترات مختلفة بواسطة عبارات متّفق عليها وكلمات معيّنة مستحبّة..." [90].

- "وكلّها تنتمي إلى المصطلح اللّغوي الّذي يستخدمه محمّد لاحقا" [91] "لكن يعقل أن يكون المقطع الأخير [من سورة الواقعة] وحيا خاصّا، حرّره محمّد نظرا إلى الايات 1-74/73 وضمّه لاحقا إليها..." [92].

- " وكان على مخيّلة محمّد أن تتخلّى أكثر فأكثر عن الاندفاع والأصالة كلّما ازداد اهتمامه بالحاجات العمليّة للجماعة النّاشئة" [93].

(88) لعلّ المراد من كلمة الجوارير الجذاذات، وقد تكون جمعا لكلمة "جرّة".

(89) نفس المرجع، ص 57 - 58.

(90) نفس المرجع، ص 58 - 59.

(91) نفس المرجع، ص 94.

(92) نفس المرجع، ص 95.

(93) نفس المرجع، ص 94.

- "كان محمّد في أحسن الأحوال ذا أسلوب متوسّط المستوى، وتقوم أهمّيته، ككاتب، على أصالته، إذ خلق لوثيقة دينه الجديد أسلوبا جديدا ذا لون كتابيّ" (94) .

4 - *مصادر القرآن :*

عقيدة المسلمين إجماعا وإطباقا هي أنّ القرآن من مصدر إلهيّ لا سواه، والقرآن في اعتقاد المسلمين هو كالتّوراة والإنجيل وحي صادر من السّماء، أي أنّ هذه الكتب الإلهيّة من مصدر سماويّ بلا شكّ أو ريب، لكنّ اليهود والنّصارى حاولوا الطّعن في سماويّة القرآن وأنّه صادر عن الوحي الإلهيّ، ويبدو أنّ تيودور نولدكه الّذي ينتمي إلى بيئة دينيّة يهوديّة مسيحيّة لم يبذل أيّ جهد في كتابه "تاريخ القرآن" لتجاوز هذا الموقف، بل ساعدت شدّة تأثّره بالبيئة الدّينيّة والعلميّة والاجتماعيّة الّتي عاش وترعرع فيها على اتّجاهه نحو تكريس نظريّة كون القرآن لم يكن سماويّا والتّأكيد في مقابل ذلك على بشريته، وأنّه من مصادر مختلفة منها ما هو مأخوذ عن الكتب الدّينيّة المقدّسة السّابقة، ومنها ما هو مقتبس من مصادر بشريّة أخرى، ويوحي ما ذهب إليه نولدكه بأنّ أقواله ونظريّاته هذه، ليست سوى تكرار واستمرار لنفس الأفكار الّتي صدرت في الدّراسات اليهوديّة المسيحيّة حول القرآن في عهود الظّلام والقرون الوسطى، بينما كان بإمكانه أن ينظر إلى الموضوع من زاوية عصر التنوير والحداثة، ومن شروط هذا العصر - أساسا - التزام الموضوعيّة والأمانة، ونبذ التعصّب والتطرّف في المواقف، والعمل على بناء الثّقة المتبادلة تمهيدا لإرساء جسور الحوار بأبعاده الدّينيّة والحضاريّة والثّقافيّة والسّلمية حتّى تتعزّز فرص التّفاهم والتعايش والاحترام.

(94) نفس المرجع، ص 94.

ونودّ الاكتفاء في هذا المقام بإيراد بعض المواقف الّتي عبّر عنها نولدكه حول "مصادر القرآن" في كتابه "تاريخ القرآن". وليكن منطلقنا ممّا ذكره تحت عنوان "القرآن المحمّدي في علاقته بالكتب المقدّسة المسيحيّة - اليهوديّة" : [95]

- "إنّ إطّلاع محمّد على اليهوديّة والمسيحيّة كان جيّدا إلى الحدّ الّذي كان ممكنا في عصره في مكّة. وقد اعتمد على هذين الدّينين إلى درجة أنّه نادرا ما توجد فكرة دينيّة في القرآن ليست مأخوذة عنهما" [96]. ونحن نرى في هذا الادّعاء مجافاة للواقع وتقوّلا على القرآن إذ من الثّابت بالأدلّة العقليّة والنّقلية المقرّرة في المصادر الإسلامية أنّ القرآن لم يأخذ عن التّوراة والإنجيل كما ذكر نولدكه، وإنّما كلّ ما في الأمر أنّه يشترك معهما في المصدر السّماوي، ومن هنا اتّفقت جميع الكتب الإلهيّة على كثير من المسائل، باعتبار أنّ دعوة الرّسل والأنبياء متّحدة في المصدر والمضمون والهدف.

وممّا يضيفه نولدكه في سياق حديثه عن "مصادر القرآن" قوله:"إنّ المصدر الرّئيسي للوحي الّذي نزّل على النّبيّ حرفياً، بحسب إيمان المسلمين وبحسب اعتقاد القرون الوسطى وبعض المعاصرين، هو بدون شكّ ما تحمله الكتابات اليهوديّة... لهذا، لا لزوم للتّحليل لنكتشف أنّ أكثر قصص الأنبياء في القرآن، بل الكثير من التعاليم والفروض، هي ذات أصل يهودي..." [97]، ويجب أن ننبّه كلّ باحث نزيه إلى ضرورة التوقّف عند قول نولدكه "بحسب إيمان المسلمين" لنكتشف معا أن ما

(95) نفس المرجع، ص 342.
(96) نفس المرجع، ص 343.
(97) نفس المرجع، ص 7.

يذكره فيه مغالطة واضحة لا يمكن أن تنطلي إلاّ على السّذّج الّذين لا معرفة لهم بالإسلام وعقائد معتنقيه، وإلا فمتى كان المسلمون يؤمنون بأنّ المصدر الرّئيس للوحي الّذي نزّل على النّبيّ حرفيّا، هو بدون شكّ ما تحمله الكتابات اليهوديّة ؟

5 - سقوط آيات، وإضافة آيات، وضياع آيات :

تحدّث نولدكه في معرض بحوثه حول ترتيب سور القرآن الكريم حسب التّسلسل الزّمنيّ عن سقوط آيات وإضافة آيات وضياع آيات من القرآن، وذهب شوطا بعيدا في هذه الاتّجاه حتّى إن القول إنّه لا تخلو صفحة من صفحات كتاب "تاريخ القرآن" من هذه الاستنتاجات لا يعدّ أبدا من باب المبالغة أو الغلوّ، وما يمكن أن يلاحظ في هذا الصّدد أنّ نولدكه نفسه لم يكن مقتنعا بالنتائج التي توصّل إليها، فكان يصدّر كلامه بسبب هذا الأمر بعبارات تفيد الشّك والتّشكيك، والظّن والتّخمين، وذلك من قبيل قوله : "وربّما" و"تبدو" و"كأنّها" و"من الصّعب أن نفهم" و"فربّما ألحقت" و"لهذا من المحتمل" و"قد يكون محمّدا قد أضاف" و"يظهر أنّ" و"الاحتمال شديد" و"فلعل" و"أظنّ أنّ" و"على الأرجح".

ولسنا ندري كيف اعتبرت كثير من المؤسّسات العلميّة والجامعات الأكاديميّة - بأساتذتها ومفكّريها - في شرق الأرض وغربها أن كتاب "تاريخ القرآن" يعدّ فتحا مبينا في أفق الدّراسات القرآنية، بينما هو في الحقيقة ليس سوى محاولة لتقويض القرآن والطّعن فيه بشتّى الوسائل والسّبل، ويبدو أن نولدكه لم يألّ جهدا في هذا المجال، فسخّر كلّ طاقاته لتحقيق هذه الغايات، وذلك بمثل قوله :

- " نصّ الآية الأولى يغـذّي الشّكّ بأن مطلع السّـورة الفـعليّ قـد ضاع" [98].

- "أمّا في سورة الذّاريات 51 فالآيات 24 وما يليها أضيفت في وقت متأخّر على الأرجح" [99].

- "تبـدو سـورة الرّحـمن 55 بأسلوبها شـبـه اللاّهي وكـأنّهـا نتـاج متأخّر نسبيّا... أمّا الفائدة الخلقية في الآيتين 8/7 و9/8 فربّما ألحقت في وقت متأخّر بالآية 7" [100].

- "وربّمـا سـقطت من بين الآيتين 24 و 25 بعض الكلمـات الّتي يحكى فيها عن قتل الكفّار للمؤمن الوحيد" [101].

- "وربّما سقطت بعد الآية الأولى بعض الآيات التي تقود بصورة طوعـيـة إلى الآية الثـانيـة. أو أنّ الآية الأولى انتُـزعت من سـيـاق آخـر ووُضعت عـمـدا في مكانها الحالي، لأن الآية 62/60 جعلت على علاقة بها. في هذه الحال يمكننا أن نفترض ضياع المقـدّمـة الأصليّة الّتي سبقت الآيات 2 و و" [102].

- "الآيات 82/76 تبدو قطعة مضافة في مكان غيـر مناسب، إذ يصعب ضمّها إلى ما قبلها وما بعدها على السّواء" [103].

(98) نفس المرجع، ص 85، والسّورة المعنيّة هي سورة القدر.

(99) نفس المرجع، ص 94.

(100) نفس المرجع، ص 96/95.

(101) نفس المرجع، ص 117، وقد ورد هذا الكلام ضمن تحليل سورة يس.

(102) نفس المرجع، ص 122، والكلام هنا عن سورة الإسراء.

(103) نفس المرجع، ص 138 ن والآيات المتحدث عنها من سورة القصص.

- "والاحتمال شديد بأنّ جزءا من النّص سقط قبل الآية 16/15 ونلاحظ حالات مشابهة نتجت من تعديلات في النّص، أما المقطع المختصّ بلقمان فقد يكون بأسره أضيف لاحقا" [104].

- "ورغم عدم وجود صلات وثيقة بين هذه المقاطع، فقد يكون محمّد جمعها بنفسه" [105].

- "الآيات 121/118 غير موجودة في موقعها الصّحيح... ويبدو أنّ بعض الكلام قد سقط قبل الجزء الّذي يبدأ بالآية 155/154" [106].

- "وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد أنّه لم تسقط قبلها إلاّ كلمات أو آيات قليلة جدّا" [107].

6 - انحياز نولدكه إلى اليهود :

يبدو هذا الانحياز واضحا، بفعل عوامل كثيرة ساعدت على انتشار هذه النّزعة ليس عند نولدكه فحسب، بل عند أغلب المستشرقين الألمان الّذين كان معظمهم ينحدر من أصول دينيّة يهوديّة أو أنّهم تربّوا في مراكز العلم اليهوديّة وتلقّوا تكوينهم على أيدي أحبار وحاخامات، ومن بين هؤلاء المستشرقين على سبيل المثال أبراهام جيجر (1810 م - 1974 م) Geiger Abraham الّذي قال عنه عبد الرّحمن بدوي : "حبر يهوديّ ألمانيّ تناول بالدّراسة المشابه بين القرآن وبين الكتب المقدّسة عند اليهود" [108] وقال عنه يوهان فوك : "... وكان أبراهام جايجر أحد

(104) نفس المرجع، ص 141، والآيات المعنيّة من سورة لقمان.

(105) نفس المرجع، ص 143، ويتحدّث نولدكه في هذا الموضع عن سورة الأعراف

(106) نفس المرجع، ص 146، والآيات من سورة الأنعام.

(107) نفس المرجع، ص 160، أي قبل الآيات 162/158 - 167/163 من سورة البقرة.

(108) بدوي، عبد الرّحمن _ موسوعة المستشرقين، ص 222.

روّاد هذا الاتّجاه. فقد ترعرع في المذهب اليهوديّ المتطرّف، وتلقّى ثقافة تلموديّة..." (109).

ولمّا لم يكن هدفنا استقصاء شاملا لعدد هذا النّوع من المستشرقين فإنّنا نكتفي بالإشارة إلى أنّ البروتستانية الألمانية كانت وثيقة الصّلة بالجذور اليهوديّة تحديدا، وكان المستشرقون الألمان يدورون في فلك هذه النّظرية الّتي تعود بالتّراث الإنساني إلى أصول يهوديّة بدرجة أساسية، ولم يحد القرآن في الدّراسات الاستشراقية الألمانية عن هذا الاتّجاه، فصار ذا منابع يهوديّة في كل ما بشّر به من تعاليم دينيّة، سواء تعلّق الأمر بموضوع الشّعائر أم المعاملات، في محاولة للإيحاء بأن الإسلام لم يضف شيئا إلى الحضارة الإنسانية، بل كيف كان بإمكانه تحقيق هذه الإضافة، وهو عندهم مجرّد تابع للتراث اليهوديّ، والمسيحيّ بدرجة أقلّ، من حيث البنى الثّقافية والدّينيّة والحضاريّة، حتّى إنّ الإنسان اليهوديّ في زمن البعثة المحمّدية كان نموذجا للإنسان المتفوّق، فهو يبدو من خلال هذه الدّراسات أشجع النّاس في ساحات القتال والنّزال، وأصفاهم قلبا وأبعدهم عن النّفاق، وأقدرهم على النّفاذ إلى الأمور بذكاء ومعالجتها بحكمة تنمّ عن مهارته في التصدّي لجميع التحدّيات بمستوى لا يضاهيه أيّ مخلوق على وجه الأرض.

ونحن إذ نذكر بعض المقاطع ممّا ورد في كتاب "تاريخ القرآن" بهذا الخصوص، نودّ عدم التّوقّف لنقد ما ذهب إليه نولدكه في هذا المضمار، حرصا منّا على تضميد الجراح ودفع السيئة بالّتي هي أحسن، والرّغبة في مواصلة مشروع الحوار بين الثقافات والحضارات في كنف أجواء هادئة رصينة لتستفيد الإنسانية من تحقيق السّلام الحقيقيّ بين الأديان،

(109) فوك، يوهان - تاريخ حركة الاستشراق، ص 175.

وذلك بتجنّب التّورّط في ردود الأفعال بسبب التّصريحات المستفزّة الّتي سندرج نماذج منها تفصح عن نزعة عنصريّة واضحة :

- "القبائل اليهوديّة الّتي كانت تقيم في يثرب نفسها والواحات المجاورة تصدّت للنّبيّ بعزم أقوى من "المنافقين". إضافة إلى تفوّقهم الفكريّ على العرب بسبب التّراث الأدبيّ المكتوب الّذي كانوا يملكونه، مهما اعتبر علمهم ضئيلا، كان يهود هذه القبائل يتّصفون بشجاعة في الحروب وصفات أخرى، مكّنتهم بالطّريقة المعهودة المثيرة للإعجاب من الاندماج وجيرانهم من دون أن يفقدوا خصوصيتهم" [110].

- "وبما أنّ النّص يفيد بأنّ الحرب قد بدأت بالفعل، فلا بدّ من أن يكون هذا المقطع نشأ بعد طرد بني قينقاع في شوّال من السّنة الثانية، وذلك قبل الضّربة الأخيرة الّتي وجّهت إلى اليهودية العربية بالاستيلاء على خيبر في جمادى الأولى من السّنة السابعة" [111]. ويُظهِر هذا الكلام اليهود في حالة الضّحية المعتدى عليهم، بينما الواقع تاريخيّا مخالف لهذه اللّغة التحريضيّة إذ لم يعتد المسلمون على اليهود أبدا، ونصّ الوثيقة المدوّنة الّتي التزم فيها الرّسول عليه الصّلاة والسّلام بمراعاة حقوق أهل المدينة كافة خير شاهد على هذا الأمر، وقد ورد فيها ما يلي : "بسم اللّه الرّحمن الرّحيم، هذا كتاب محمّد النّبيّ الأمّي بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب... وأنّه من تبعنا من اليهود فإنّ له النّصر المعروف والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم... وإنّ

(110) نولدكه، تيودور - تاريخ القرآن، ص 152.

(111) نفس المصدر، ص 206.

اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين [112]، وإنّ يهود بني عوف ومواليهم وأنفسهم أمّة من المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم..." [113] ويكفي في هذا السّياق أن نلاحظ إقرار النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم بأن "اليهود أمّة من المؤمنين"، لكي نعلم مدى احترام الإسلام لوجود الأمم والأديان الأخرى.

تراجع نولدكه عن النتائج الّتي توصّل إليها في كتابه "تاريخ القرآن" :

من المفارقات العجيبة الّتي تتّصل بكتاب "تاريخ القرآن" أن تيودور نولدكه سرعان ما أعلن في مناسبات مختلفة عن تراجعه عن النّتائج الّتي توصّل إليها وتخلّيه عنها بشكل كامل، وقد ورد ذلك ضمن اعترافه بأن كتابه هذا لم يكن سوى نتيجة "وقاحة صبيانيّة" انعدمت ثقته بها، وتصدّر هذا الاعتراف مقدّمة الطبعة الثّانية من الكتاب ضمن ثناء نولدكه على تلميذه شفالي بقوله : "وقد قام بقدر الإمكان بجعل الكتاب الّذي أنجزته بسرعة قبل نصف قرن مراعيا المستلزمات الحاضرة. أقول "بقدر الإمكان" لأنّ آثار الوقاحة الصّبيانية لن يمكن محوها بالكلّية، من دون أن يعاد تأليف الكتاب من جديد. بعض ما قلته حينذاك بقليل أو كثير من

(112) وإنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين : فهذه النّفقة في الحرب خاصّة، فقد شرط عليهم المعاونة على عدوّه، ونرى إنّما كان يسهم لليهود إذا غزوا مع المسلمين بهذا الشّرط الّذي شرطه عليهم من النّفقة، ولولا هذا لم يكن لهم في غنائم المسلمين سهم - سبل الهدى والرّشاد في سيرة خير العباد للشيخ محمد بن يوسف الصّالحي الشامي تحقيق مصطفى عبد الواحد وعبد العزيز عبد الحق حلمي - ج 3، ص 556 - نقلا عن : هجرة الرّسول وصحابته في القرآن والسّنة - أحمد عبد الغنيّ النجولي الجمل - دار الوفاء للطباعة ط 1 - مصر - 1409 هـ / 1989م، صص 252 - 254.

(113) ابن هشام - السيرة النّبويّة - تحقيق طه عبد الرّؤوف سعد - مطبعة الفجالة الجديدة - ط 3 - مصر - 1398 هـ / 1978 م - ج 2، ص 106 وما بعدها.

الثقة انعدمت ثقتي به لاحقا" [114]. وأضاف نولدكه مقرّا باستحالة إمكانية وضع تسلسل زمنيّ دقيق للسّور، بقوله :"من المستحيل وضع تسلسل زمنيّ دقيق للسّور القديمة، لا بل للسّور المكّية بأسرها" [115]. ومضى قائلا : "كلّما طالت دراستي للقرآن وتعمّقت، انجلى لي بوضوح أكبر أنّ من بين السّور المكّية مجموعات متفرّقة يمكن الفصل بينها، وذلك مع انعدام إمكانية القيام بأيّ ترتيب تأريخيّ دقيق للسّور، وكم من دليل وجدته من قبل مناسبا لهذا الغرض بدا لي لاحقا غير موثوق به، وكم من زعم أبديته قبلا بقدر كبير من الثقة، بدا لي من بعد فحص متكرّر وأدقّ زعم غير أكيد" [116]. وأضاف جورج تامر مترجم كتاب "تاريخ القرآن" اعترافا جديدا بقوله : "لكنّ نولدكه يعترف، في الوقت نفسه، بأنّ التّرتيب الّذي يقترحه ليس إلاّ ترتيبا تخمينيّا، وذلك بسبب فقدان الدّلائل التاريخيّة الصّلبة" [117]. كما نقل فؤاد حسنين علي عن المستشرق الألماني "فريتز هومل" قوله في الاجتماع الّذي انعقد بمناسبة نعي نولدكه : "فقد أرسل ناشر هذا الكتاب إلى نولدكه عام 1998 بخطاب يرغب فيه إليه أن يعيد نشر هذا الكتاب أو يقترح عليه عالما آخر يراه أهلا للقيام بهذه المهمّة، فأجاب نولدكه : "فرفضت أنا لأسباب عديدة، وذلك لأنّه لم يكن في استطاعتي أن أعيد نشر هذا الكتاب في ثوبه الجديد الّذي قد يرضيني" [118].

(114) نولدكه - تاريخ القرآن، ص XXXI.
(115) نفس المرجع، ص 57.
(116) نفس المرجع، ص 68.
(117) نفس المرجع، ص XVII.
(118) لمنجّد، صلاح الدّين - المستشرقون الألمان، ص 124.

إنّ هذه النّقول تتّفق جميعها على أنّ ما تشبّث به كثير من الدّارسين الغربيّين، والباحثين والمفكّرين من العرب والمسلمين لم يكن سوى تخمينات ووقاحات صبيانيّة بحسب اعتراف تيودور نولدكه، وهذا ما يجعلنا نكتفي بهذا القدر من المحاسبة، باعتبار أنّ اعتراف المؤلّف وتراجعه، يعدّ "سيّد الأدلّة" وأقوى الحجج على أنّ ما ورد في كتاب "تاريخ القرآن" أوهى من أن يصمد أمام النقد العلميّ والمراجعة الموضوعيّة.

عود على بدء :

لم يعد هناك مجال للشّك في أنّ كتاب "تاريخ القرآن" لتيودور نولدكه قد فقد سهما كبيرا من بريقه الذّي كان يستهوي الدّارسين، ونحن نفترض أنّ كثيرا من الباحثين والأساتذة الأكاديميّين في البلاد العربيّة والإسلاميّة قد يجدون أنفسهم أمام خيار مراجعة قناعاتهم الّتي كانت لديهم حول هذا الكتاب، ومن ذلك محاولة عبد المجيد الشّرفي إسقاط مناهج اليهود والنّصارى في دراساتهم للعهدين القديم والجديد على طرق الدّراسات القرآنية وخصائصها، فقد ادّعى الشّرفي "أنّ القراءة التّفسيريّة الحديثة ليست لها بالضّرورة غاية معياريّة وهي بالتّالي ملك مشاع بين المؤهّلين فنّيا للقيام بها مهما كانت عقيدتهم" [119] بينما نرى أنّ دعوة الشّرفي ومذهبه هذا لا يلزمه إلاّ شخصيّا لأنّنا طالما أكّدنا أنّه "لا يفهم القرآن إلاّ من خوطب به" من المؤمنين الخلّص، وقد يكون أقرب دليل لإبطال نظريّة عبد المجيد الشّرفي في هذا المضمار هو تخبّط نولدكه في كتابه "تاريخ القرآن" وإعلانه التّخلّي عن النّتائج الّتي توصّل إليها لأنّه

(119) الشّرفي، عبد المجيد - لبنات/مقال : المنهج المقارن في قراءة الإنتاج الدّينيّ - دار الجنوب للنّشر - تونس 1994، ص 106.

لم يكن مؤهّلا أبدا للخوض في القضايا المتعلّقة بالقرآن وعلومه المختلفة.

ومع كلّ ذلك لم يجد الشّرفي أيّ حرج في مواصلة الثّناء على نولدكه - دون أن يصرّح بذكره - بقوله : "وسمحت نفس الطّريقة بترتيب سور القرآن ترتيبا زمنيّا يمتدّ على أربع فترات، ثلاث منها مكّية والأخرى مدنيّة" (120) ولكنّه استدرك منوّها بنولدكه : "فالتّرتيب الزّمني للسّور القرآنية عند نولدكه وشفالي وبلاشير لا يبتعد جوهريّا عن التّرتيب الّذي توصّل إليه المفسّرون المسلمون القدامى اعتمادا على أسباب النّزول" (121)، وفي هذا الكلام مغالطة واضحة ومجازفة خطيرة لأنّ عبد المجيد الشّرفي ينسب ترتيب القرآن إلى المفسّرين المسلمين القدامى، بينما الواقع الّذي عليه أمّة الإسلام قاطبة - ولا عبرة بمن شذّ منهم - أنّ هذا الترتيب القرآنيّ الّذي بين أيدينا اليوم هو من عند رسول اللّه بأمر مباشر من الوحي الإلهيّ كما هو ثابت ومقرّر بالنّصوص القطعية في المظانّ الصّحيحة.

ويضاف إلى هذا الأمر أنّ ما توصّل إليه نولدكه في كتابه "تاريخ القرآن" لم يكن قريبا البتّة إلى ما ورد في مصنّفات المفسّرين المسلمين، إذ أنّ أيّا منهم لم يتناول الرّسول أو أمّهات المؤمنين بالإساءة، كما لم يتعمّد أيّ منهم التشكيك في إلهيّة القرآن، ويؤكّد هذا الأمر أيضا ما نصّ عليه جورج تامر بصريح العبارة عند حديثه عن ترتيب السّور عند نولدكه : "هكذا يُخضع نولدكه في الجزء الأوّل من الكتاب الآيات والسّور القرآنية لتمحيص لغويّ دقيق يستخرج منه، كما سبق القول أعلاه، ترتيبا

(120) نفس المرجع، ص 106.

(121) نفس المرجع، ص 106.

زمنيّا للسّور، يختلف عن ترتيب نزولها من وجهة نظر التّراث الإسلاميّ" [122]. فمن نصدّق يا ترى ؟ القائل بالاختلاف أم القائل بعدمه.

يبقى أنّنا نودّ الرّجوع في خاتمة هذه المداخلة إلى قضيّة حوار الثّقافات لنؤكّد مجدّدا أنّنا حرصنا على عدم التّورّط في ردّ الفعل على الاستفزازات الكثيرة الّتي انجرّ إليها نولدكه لنتمكّن من الدّعوة بهدوء وحكمة، وأدب واحترام إلى مزيد دعم الثّقة بين المتحاورين، والتزام الموضوعية والرّصانة والجدّية بحق، وتجنّب أساليب التّحريض والاستفزاز حتّى تتقدّم قاطرة الحوارفي طريق آمنة وسالكة. وهذا ما يجعلنا نأمل أن يصدر كتاب "تاريخ القرآن" في طبعة جديدة معدّلة ومصحّحة، وذلك بتجريدها من جميع الأخطاء والإساءات والوقاحات الصّبيانيّة الّتي اعترف بها نولدكه، لكي لا تكون هذه النّسخة المتداولة حاليّا ذريعة بين أيدي المتنطّعين والمتطرّفين الكامنين في غرب الأرض وشرقها على حدّ سواء.

(122) نولدكه، تاريخ القرآن، ص XVI.